مباحث في
التصوف والطرق الصوفية
في ليبيا

تأليف
الدكتور جمعة محمود الزريقي



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique



الدكتور جمعة محمود الزريقي
مباحث في
التصوف والطرق الصوفية
في ليبيا
تاريخ تصوف
٥
٤
٣



الدكتور جمعة محمود الزريقي

- من مواليد 23-3-1945 طرابلس الغرب.

الوظيفة الحالية: مستشار بالمحكمة العليا ـ الجماهيرية الليبية وأستاذ متعاون مع الجامعات الليبية.

المؤهلات العلمية:

- ليسانس حقوق، جامعة قاريونس بنغازي، العام 1976 مسيحي.
- ماجستير في الفقه المقارن، (شريعة وقانون) كلية التربية جامعة الفاتح طرابلس 1984 مسيحي.
- دكتوراه الدولة في القانون الخاص، كلية العلوم القانونية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب 1993 مسيحي.

مؤلفاته:

- التوثيق العقاري في الشريعة الإسلامية.
- نظام الشهر العقاري في الشريعة الإسلامية، دراسة مقارنة.
- تحقيق الملكية في نظام التسجيل العقاري الليبي والمغربي.
- الحقوق العينية الأصلية والتبعية في التشريع الليبي، مجلدان.
- أحكام الإفلاس واستغراق الذمة بالمال الحرام في الفقه الإسلامي.
- مبادئ الثقافة الإسلامية، بالاشتراك مع د. عمر مولود عبد الحميد.
- كتاب تراجم ليبية، دراسة في حياة وآثار بعض الفقهاء والأعلام من ليبيا قديماً وحديثاً، جزآن.
- الطبيعة القانونية لشخصية الوقف المعنوية.
- مباحث في الوقف الإسلامي.
- الإطار التشريعي لنظام الوقف في بلدان المغرب العربي.
- الإعلام والعقل العربي.
- المحكمة العليا في ليبيا مسيرة نصف قرن م بالاشتراك مع الدكتور عبد الرحمن أبو توتة.
- ربيع باريس، رحلة للمؤلف إلى فرنسا، مشاهدات وذكريات، جاهز للطبع.
- مباحث في التصوف والطرق الصوفية في ليبيا.
- تراجم ليبية، الجزء الثالث، تحت الإعداد.
- حقوق المرأة والطفل، تحت الإعداد.
- علاقة القضاء بالأوقاف، كتاب معد للطبع.
- دور الوقف في الحضارة الإسلامية.

التحقيق:

- التقسيم والتبيين في حكم أموال المستغرقين.
- شرح ألفاظ الواقفين والقسمة على المستحقين.
- حادي العقول إلى بلوغ المأمول.
- البغية من ملخص الأحكام الشرعية على المعتمد من مذهب المالكية.
- تذييل المعيار.
- مجموعة من البحوث العلمية نشرت في دوريات مختلفة داخل الجماهيرية وخارجها، تجاوزت الأربعين بحثا علميا، ومشاركة في عدد كبير من الندوات في الداخل والخارج، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ندوة حركة التحديث في عالم الإسلام اليوم، عقدت بالمغرب 2006 مسيحي، ومنتدى قضايا الوقف الفقهية الذي عقد بدولة الكويت خلال شهر مايو 2007 مسيحي، (وندوة شرعية الرحم البديل) التي عقدت بكلية الطب جامعة الفاتح بطرابلس نوفمبر 2007 مسيحي، ندوة دور طرابلس في نشر الثقافة الإسلامية، نظمتها أمانة اللجنة الشعبية للإعلام والثقافة مع كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس 6 - 7 -2 - 8 200 مسيحي، مؤتمر الخدمات المالية الإسلامية التي تنظمه الدراسات العليا والمركز العالي للمهن الإدارية والمالية، أكاديمية الدراسات العليا، طرابلس، 29 -30 -6-2008 مسيحي، المؤتمر الدولي بشأن أحكام بين الشريعة الإسلامية والاتفاقات والإعلانات الدولية، جامعة الأزهر، كلية الشريعة والقانون بطنطا، رابطة الجامعات الإسلامية، 7 -9 -10-2008 مسيحي، المؤتمر العلمي الدولي المنارة الأسمرية من الزاوية إلى الجامعة، زليطن، الجماهيرية الليبية 11 -13 -11-2008 مسيحي، دورة تدريبية حول الإدارة الاقتصادية والمالية لمؤسسات الزكاة، دار الإمام، الجزائر 17 - 21 يناير2009، مسيحي شارك فيها بورقتين حول دراسة مقارنة لتشريعات الزكاة في بعض البلاد العربية، والقضايا المستجدة في فقه الزكاة.


ISBN 978-9959-28-238-5

مبــاحث فـي
التصوف والطرق الصوفية
فـي لـيـبـيا

مـباحث فـي
التصوف والطرق الصوفية
فـي ليبيا

تأليف

الدكتور جمعة محمود الزريقي

تقديم

الأستاذ الدكتور علي فهمي خشيم



ASSOCIATION MONDIALE DE L'APPEL ISLAMIQUE



مباحث في التصوف والطرق الصوفية في ليبيا

الدكتور جمعة محمود الزريقي

منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

طريق السواني ـ طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

هاتف: 65 ـ 4808461 ـ بريد مصور: 4800293 ـ ص.ب: 2682 طرابلس

Website: www.islamic-call.net

E-mail: media@islamic-call.net

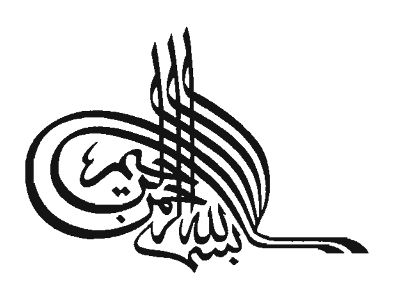
الطبعة الأولى: 1378 من وفـاة الرسول ﷺ (2010) مسيحي

الرقم المحلي: 213/ 2009 دار الكتب الوطنيـة ـ بنغـازي

الرقم الدولي: ردمـــك ISBN: 978 - 9959 - 28 - 238 - 5

«يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من جمعية الدعوة الإسلامية العالمية»

حقوق الطبع محفوظة لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿28﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 28 و29].

وقال ﷺ: «**يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه، وإن اقترب إلي شبراً، تقربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة**» رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، كتاب الذكر والدعاء، حيث رقم 2686. ورواه الإمام الترمذي في الجامع الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أبواب الدعوات، حديث رقم 3673، كما رواه الإمام ابن ماجه في سنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأدب، حديث رقم 3822، وقال ﷺ:

فيما يرويه عن ربه أنه قال: «**إذا تقرب العبد إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً**

وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني مشياً أتيته هرولة» رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، ورواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التوحيد.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

الإهـــداء

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أهدي هذا العمل المتواضع إلى من هم في مقام الإحسان، المتقربين إلى الله تعالى، المتصلين بحبله الذي لا ينقطع، المحبين لرسول الله ﷺ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، المتصفين بآداب النبوة الزاهدين في ملاذ الدنيا وأعراضها الفانية، المتحلين بالأخلاق الفاضلة، المداومين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المتمسكين بالعروة الوثقى، الذين يعيشون مع الله وبالله وفي محبة الله.

إلى أهل التصوف

المؤلف
طرابلس الغرب
الإثنين 19/ 9/ 2005م

تقديم

تكتسب كلمة «مرابط» في الدارجة الليبية، وهي كذلك في بقية أقطار المغرب العربي وإن بدرجة أقل، جملة دلالات خاصة، فهي تفيد ما تفيده كلمة «ولي» في المشرق العربي كما تعني ـ بتطور الدلالة ـ صفة الصلاح والصدق والاستقامة، صفات المتصوفة، وازدادت تطوراً في دلالتها حتى صارت تدل مع ما مضى على الطيبة المفرطة حتى لتبلغ مبلغ حسن النية بل والسداجة وصفاء الطوية والأصل البعيد للكلمة من مادة (ربط) ومنها: الرباط، أي الموقع الذي يصمد فيه المجاهدون في مواجهة الغزو الخارجي، والمرابطون أي المجاهدون الثابتون في مواطن الدفاع في الثغور وعلى السواحل الإسلامية، في الشمال الإفريقي بصفة خاصة.

فلا عجب إذن أن نلحظ على الشاطئ الليبي الممتد نحو ألفي كيلومتر العدد الكبير من قباب «المرابيط»، أي الأولياء الصالحين الذين لا ريب في أنهم كانوا، مع تصرفهم، من حماة الثغور الذين ربما استشهدوا في رباطهم، أو توفاهم الله وهم ثابتون دفاعاً عن أرض الإسلام.

ولعله من هنا كانت الصلة الوثيقة بين «الجهاد» بمعنى القتال في سبيل الله و«المجاهدة» وهي تعبير صوفي يرمي إلى السموّ بالنفس عن متاع الحياة الدنيا وتخليصها من شوائب المادة الحسية.

لقد كانت البلاد الليبية منذ بداية الفتح موئلاً للكثيرين من «المرابطين» الذين مزجوا ما بين الجهاد والمجاهدة، إما قادمين من الشرق في سبيلهم إلى الغرب أو العكس. وقد استوطن عدد وفير منهم هذه البلاد في مواطن مختلفة وعاشوا بين ظهراني أهلها حتى توفاهم الله ودفنوا حيث أقاموا وصارت أضرحتهم مزارات معلومة مشهورة، وظهر من أهل البلاد أنفسهم أفراداً وجماعات اتبعوا طريق الصوفية وصاروا من أهل تلك الطريقة وكانت لهم مساهماتهم العلمية والعملية في هذا الباب، وإن لم ينل أغلبهم حظاً من الشهرة والذيوع ما نال سواهم من السالكين.

وليس لأحد أن ينكر دور التصوف الديني والاجتماعي بل والسياسي في ليبيا، وما أداه المتصوفة من خدمات ليس على المستوى المحلي فحسب وإنما خارج الحدود أيضاً وعلى الأخص في إفريقيا على تخوم الصحراء وفي أعماقها. ولقد كانت الزوايا الصوفية المنتشرة على طول البلاد وعرضها ملجأ مهماً يلوذ به القوم للاجتماع بعضهم ببعض في عهد الاستعمار الإيطالي بالذات حين كان التجمهر محرماً على الليبيين، تحت ستار حلقات الذكر والحضرة والمدائح النبوية، كما كانت هذه الزوايا ـ التي تدعى حيناً كتاتيب وحيناً جوامع ـ هي محل تحفيظ القرآن الكريم ثم دراسة العلوم الإسلامية من فقه ونحو وما إليها عندما حاول ذلك الاستعمار طمس الهوية العربية الإسلامية وطلينة المجتمع الليبي بكل ما لديه من سطوة العسف والطغيان. ولا يطعن في هذا الدور ما اعترى بعض الطرق (التي تدعى في الدارجة الليبية «طوائف») من خلل وما حاق بها من انحراف حولها عندما تولى أمرها الجهلة إلى ضرب من الدجل والشعوذة وانصرف بها عن طريق التصوف السديد؛ فإن هذا ما يحدث عادة حينما تسود الجهالة أو تنعدم إمارة الإرشاد ومعالم السبيل.

ورغم ما كان للتصوف، أو بتعبير أدقّ ما كان لاتباع الطرق الصوفية، من أثر وتأثير في المجتمع الليبي على مرّ العصور، ورغم بروز شخصيات وتيارات

متنوعة متعددة، فإن الاهتمام بتاريخ التصوف وأهله وتحليل دوافعه وأسبابه ونتائجه، ودراسة مجاريه وتطوراته ظل زمناً طويلاً بعيداً عن اهتمام الدارسين والباحثين إلا ما نذر، حتى كادت معالمه أن تختفي ويعفى عليه الزمن. وتبع ذلك خسارة كبيرة في تسجيل إسهام القطر العربي الليبي في الحياة الثقافية والفكرية الإسلامية؛ وذلك لارتباط التصوف والفقه ارتباطاً وثيقاً في فترات معينة من التاريخ الإسلامي حتى قيل إنه «لا فقه بدون تصوف ولا تصوف بدون فقه».

من هنا تأتي أهمية كتاب الدكتور جمعة محمود الزريقي (مباحث في التصوف والطرق الصوفية في ليبيا) باعتباره مفتتحاً لميادين واسعة من الدرس والتقصي وإضافة مهمة إلى البحث في التاريخ الفكري والاجتماعي للمجتمع الليبي، في فترات ظلت غائمة الملامح غير محددة الرؤى لأسباب يدركها من ولج هذا الباب. ولقد جاءت هذه المباحث الجادة في وقتها؛ إذ هي تكشف الغطاء بصورة دقيقة عن قضايا وشخصيات وإسهامات كثيرة تقدم زاداً لمن يروم متابعة ما طرحه المؤلف بصبر وأناة كبيرين. وقد جاء ما بين أيدينا من مباحث نتيجة سنوات من المشاركة في الوفير من الملتقيات العلمية أو نشر في الدوريّات والمجلات الأكاديمية وهو ما يتطلب الحرص في البحث والدقة في التتبع والوضوح في العرض، مع الرغبة في تقديم شيء جديد ذي أهمية في تاريخ مجتمعنا ونمط حياته الفكرية والدينية والثقافية. ولا ريب في أن القارىء العام كما هو القارىء المتخصص، سيجد كلاهما بغيته في ما يلي من الصفحات.

أبارك للدكتور الزريقي جهده المشكور وأدعو له بالتوفيق كله لمزيد من العطاء المتجدد الجادّ.

الأستاذ الدكتور

علي فهي خشيم

26/ 3/ 2007م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الطرق الصوفية الجديرة بأن تمجد وتجدد، هي التي تذكي جذوة الروح في النفوس فتتجرد من شهواتها، وتنتصر على أهوائها، وتصحح لأتباعها معرفتهم بربهم الكريم، ودينهم القويم ونبيهم المبعوث رحمة للعالمين، ليكونوا كما كان على خلق عظيم، فهو الأسوة الحسنة لجميع المسلمين، ويواصلوا جهادهم الأكبر استعداداً للجهاد الأصغر في سبيل كلمة الله، والدفاع عن أرض وطن ترتفع فيها راية الإسلام، ويسمع فيها الأذان، وتحترم حقوق الإنسان وتلتزم بشريعة القرآن ـ إلا تكن كذلك ـ فهي أشباح لا أرواح، فيها صور لا حقائق وراءها.

التصوف قوة روحية

طـرق الـتـصـوف قـوة روحـيـة   فـي أمـتـي لـو أدركـت مـعـنـاهـا

---

(1) وجدت هذه الخاطرة النثرية والشعرية منشورة في صحيفة الدعوة الإسلامية، العدد 473 بتاريخ 4 رمضان الموافق 24 من شهر أي نار 1425 من ميلاد الرسول ﷺ، فاستأذنت الشاعر ـ جزاه الله عنها خيراً ـ في أن أدرجها في مقدمة كتابي عن التصوف، فأذن لي بذلك مشكوراً.

أقطابها الأبرار أوتوا حكمة		قد جسدت لحياتنا مغزاها
صبروا فكانوا في الوجود أئمة		يهدون من ضل الطريق وتاها
لو قيل لي صفهم لقلت مصدّقا		إخوان صدق يذكرون الله
كل نراه كالجنيد زهادة		وعبادة وأمانة نرضاها
والحبّ حبّ الله حبّ عباده		هو غاية لا يؤثرون سواها
فأعجب لمن قد أنكروا أحوالهم		أحوالهم طابت فطاب شذاها
أمارة بالسوء بعض نفوسنا		ونفوسهم قد ألهمت تقواها
وقد ارتوت من نبع حبّ محمد		فسمت ونالت حظها ومناها
إن التصوف في الحياة محجة		مرضية طوبى لمن أحياها
لكن إذا شاب الغلو طريقة		يخشى عليها أن يغيب سناها

لفضيلة الشيخ الأستاذ فاتح حواص

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد، ، ،

قال العارف بالله، الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، المتوفى سنة 430هـ (1039م) في كتابه حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، نقلاً عن بعْض العلماء، وقد سئل عن الصوفي فقال: لنفسه ذابح، ولهواه فاضح، ولعدوه جارح، وللخلق ناصح، دائم الوجل، يحكم العمل ويبعد الأمل، ويسد الخلل ويغضي عن الزلل، عذره بضاعة، وحزنه صناعة، وعيشه قناعة، بالحق عارف وعلى الباب عاكف، وعن الكل عازف، تربية بره، وشجرة وده، وراعي عهده. ص23/ 1.

قال الشيخ الحافظ أبو نعيم: مباني المتصوفة على أركان أربعة: معرفة الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة النفوس وشرورها ودواعيها ومعرفة وساوس العدو ومكائده ومطالبه، ومعرفة الدنيا وغرورها وتفنينها وتلوينها، وكيفية الاحتراز منها والتجافي عنها.

ثم ألزموا أنفسهم بعد توطئة هذه الأبنية: دوام المجاهدة، وشدة المكابدة، وحفظ الأوقات، واغتنام الطاعات، ومفارقة الراحات، والتلذذ بما أيّدوا به من المطالعات، وصيانة ما خصوا به من الكرامات، لا عن المعاملات انقطعوا، ولا إلى التأويلات ركنوا، رغبوا عن العلائق، ورفضوا العوائق وجعلوا الهموم همّاً واحداً، ومزايلة الأعراض طارفاً وتالداً، اقتدوا بالمهاجرين والأنصار، وفارقوا العروض والعقار، وآثروا البذل والإيثار، وهربوا بدينهم إلى الجبال والقفار، احترازاً من موامقة الأبصار، فهم الأتقياء الأخفياء، والغرباء النجباء، صحت عقيدتهم، فسلمت سريرتهم، ص24/ 1.

عزيزي القارئ لم أجد أفضل من هذه الكلمات التي قالها عالم جليل منذ عشرة قرون خلت فاقتبست بعضاً مما قاله في الصوفي والمتصوفة، واخترته لتقديم هذا الكتاب الذي يضم بعض ما كتبته في مناسبات مختلفة حول التصوف والطرق الصوفية، رغم بضاعتي المزجاة، ولكنها محاولة للتعرف على محيط التصوف الواسع الأرجاء، ولا أعتقد الوصول إلى كل الحقائق التي تدور حول التصوف، وإنما غرفة من بحر، وغيض من فيض، وحسبي أنني حاولت البحث والغوص في تراث بلادي الصوفي.

والله من وراء القصد

المؤلف: جمعة محمود الزريقي

طرابلس الغرب في العاشر شهر الفاتح (سبتمبر 2005م)

❊ ❊ ❊

المبحث الأول

لمحة عن الفكر الصوفي في ليبيا(*)

التصوف ظاهرة إنسانية لأنها مرتبطة بالفكر الذي ميّز الله به الإنسان، ولا يمكن لأي باحث في الفكر العربي الإسلامي أن يغفل الحديث عن الحركة الصوفية التي نشأت في المجتمع الإسلامي منذ بداية تاريخ الإسلام، ثم استمرت وتطورت حتى الوقت الحاضر، وتأثرت من خلال ذلك التطور بعدة عوامل واتخذت أشكالاً وصوراً متعددة، وكونت تراثاً ضخماً كان وما يزال محلاً للبحث والدراسة، خاصة من المهتمين بالتربية وعلم النفس، «لكون الحركة الصوفية حركة تربوية ونفسية تهتم بصقل الروح وتهذيب النفس وتقويم السلوك»(1).

وما زال التصوف ومظاهره يثير الجدل مثلما كان في السابق، وخاصة في الزمن الحالي بعد الاكتشافات العلمية، وتطور الحضارة وازدياد الثقافة بتوسع المدارك على العلوم ومعرفة المجتمعات الأخرى والثقافات غير الإسلامية، فلم

(*) جزء من مقدمة كتاب حادي العقول إلى بلوغ المأمول، تأليف الشيخ أحمد بن حمادي، (ت 1948م) تحقيق وتقديم، د. جمعة محمود الزريقي، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 1998.

(1) الحركة الصوفية في المجتمع العربي المسلم، د. عمر التومي الشيباني، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، عدد 10، ص214.

يعد التصديق بالكرامات والاعتقاد بالولايات أمراً سهلاً عند الإنسان المعاصر الذي ولج المدارس العصرية، واطلع على الثقافات الأجنبية، واستعمل الآلات الحديثة التي اخترعها العلم في كل شيء، بدءاً من وسائل طهي وحفظ الطعام إلى المواصلات والاتصالات، وعالم الإذاعات والأقمار الصناعية، فلم يعد له الوقت الكافي للتفكير في هذه الأمور اللهم إلا من الباحث المتخصص، أو الدارس لهذا العلم عن طريق المناهج، أو من كان يسير في طريقة صوفية يلتزم بأورادها وأحزابها، وذلك عن طريق الطوائف التي ما زالت منتشرة في رقاع الوطن الإسلامي.

ويجب على من يتصدى للبحث في ميدان التصوف أن يفرق بين أمرين: التصوف فكرة أو عقيدة وما تهدف إليه من تربية وسلوك، والتصوف كما يلاحظ في السلوك العملي لبعض المتصوفة من اتباع الطرق، وأغلبهم من العوام الذين لا يفقهون شيئاً من الشريعة، فما يقوم به بعض الناس من ضرب السيوف وأكل المسامير ودقّ الأوتاد في الجسم، واستدرار عطف الناس بضرب الدفوف وسيلة للتسوّل ليس له علاقة بالتصوف، ولا يمكن الحكم على التصوف من خلال أفعال هؤلاء الناس[1] أما السماع ما يحدث فيه من شطح ورقص وجدب فقد أجازه بعض الفقهاء منهم الإمام الغزالي الذي بحث فيه طويلاً ضمن كتابه إحياء علوم الدين، إلا إذا صاحبته عوارض تجعله محرماً[2] وكذلك الإمام السهروردي[3]، والصوفي محمد الشاذلي التونسي (ت 882هـ) وضع فيه رسالة: فرح الأسماع برخص السماع[4] ومن المتصوف المعاصر الأستاذ أحمد القطعاني الذي ذكر الأدلة في إباحته بشروطه من السنة النبوية

(1) انظر المجتمع الليبي في العهد العثماني، الأستاذ تيسير بن موسى، ص67 وما بعدها.

(2) إحياء علوم الدين، ص268/ 2.

(3) عوارف المعارف، مطبوع مع ملحق إحياء علوم الدين، ص199.

(4) تحقيق الدكتور محمد الشريف الرحموني، الدار العربية للكتاب، 1985.

وأقوال الأئمة والفقهاء[1] وكذلك الشيخ الطيب المصراتي الذي بحث موضوع السماع المعروف عندنا بالحضرة، وبين ما يقوم فيها من أفعال مع تحديد الصحيح منها والفاسد، ونقل أقوال الفقهاء في هذا الأمر بما يدل على جواز السماع إذا كان مستوفياً لشروطه وغير مصاحب لبعض الأفعال والمظاهر المضادة للشريعة الإسلامية[2]، وذلك ما يتفق مع رأي الإمام الشاطبي حيث يجيز السماع الذي تكون فيه الحكمة والموعظة التي تؤثر في القلب على عكس السماع المذموم الذي يعتمد على الأنغام ويهيج الطبائع[3].

أما التصوف فكرة وعقيدة بما لا يخالف أحكام الشرع الإسلامي، فهو منهج تربوي عظيم يهدف به السالك في هذا الطريق التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، والحصول على الثواب، فالمسلم بموجب العقيدة التي يؤمن بها يعلم أن حياته الدنيا فانية، وأن مآله إلى دار القرار، وهي الآخرة الباقية، وعليه أن يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه، ولن يكون عمل البشر جميعاً في درجة واحدة وتلك حقيقة أكدها سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[4]. لذلك يسعى المسلمون جميعاً في الثواب، وكل حسب عمله في الدنيا هناك من يقف عند التكاليف الشرعية المفروضة على الجميع فلا يزيد عليها، وهناك من يرغب في التقرب والوصول إلى الله تعالى، فاستعمل الأولون العقل ووقفوا عند الأحكام الشرعية، واستعمل الآخرون القلب ومشاعره في الوصول إلى الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «غاية أهل العبادات من غير المتصوفة يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في

---

(1) الحجة المؤتاة في الرد على كتاب إلى التصوف يا عباد الله، الطبعة الثانية، 1992، مصر، ص198.

(2) فتح العلي الأكبر في تاريخ حياة سيدي عبد السلام الأسمر، ص78، دار الكشاف، ط أولى، 1969.

(3) الاعتصام، ص281/ 1.

(4) سورة الأحقاف، الآية: 19.

الأجزاء والامتثال، وهؤلاء ـ أي المتصوفة ـ يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً، فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات»[1].

وليس من شك في أن التصوف يعود إلى مبادئ إسلامية سامية تمسك بها سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن تبعهم في ذلك، ويحدد ابن خلدون تلك المبادئ في العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[2]، من ذلك يتضح أن ابن خلدون يرى أن التصوف نشأ لأسباب اجتماعية، فبعد تطور الدولة الإسلامية ونموها بازدياد ديار الإسلام وتوسع الفتوحات، انصرف بعض الناس إلى المظاهر الدنيوية، وما فيها من ترف وأعراض ومكاسب، في الوقت الذي رغب فيه بعض الناس في الابتعاد عن تلك المظاهر، واتباع طريق السلف الصالح في الزهد والتقشف والخلوة، وكثرة العبادة والطاعات، فاعتمد الأولون على أحكام الشريعة الظاهرة بينما تقيد الآخرون بالوجدان والمشاعر، ومن هنا نشأ الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة والذي يصفه الأستاذ أحمد أمين بأنه نكبة النكبات والمصيبة العظمى، ويضيف في بيان سبب الخلاف: بأن الإسلام في جوهره لم يكن يفرق بين الاثنين، بل يأمر بالأعمال الظاهرة، ويطلب إصلاح الباطن ومراقبة الله في أدائها، فلما كثر الفقهاء وتغلغلوا في الفقه رأيناهم يغالون في مراعاة الشعائر الظاهرة من وضوء

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص440.

(2) مقدمة ابن خلدون، ص439.

وصلاة وزكاة، ومتى تصح ومتى لا تصح دون التعرض للنية ومحاسبة الروح ومن ناحية أخرى تغالي الصوفية في الأعمال النفسية والروحية ولم يضغطوا ضغطاً كافياً على الأعمال الظاهرة، فكان هناك فقهاء وصوفية، وعداء بين الفقه والتصوف[1].

ينقسم تاريخ التصوف إلى عدة مراحل، الأولى تشمل عصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وفي هذه المرحلة لم يكن هناك شيء اسمه تصوف، ولكنه مبادئ هي التي أشار إليها ابن خلدون في المقدمة، أما المرحلة الثانية وتبدأ بالقرن الثالث حيث تسرب إلى الفكر الإسلامي سيل من الأفكار والمعتقدات والمعارف المتعددة نتيجة لحركة الترجمة وإسلام عدد من معتنقي الديانات الأخرى، وفي هذه المرحلة تأثر التصوف بفلسفات وتصورات أخرى لا صلة لها بالإسلام مع ظهور شطحات وبدع وممارسات ليست في المرحلة الأولى، وفي المرحلة الثالثة التي تبدأ من القرن الثامن تقريباً سيطرت على التصوف حركة التقليد والمحاكاة وكثرة الانقسامات وتعددت الطرق وشاع الارتزاق باسم العبادة والدين والمتاجرة بالبركة وأصبحت الكرامات وخوارق العادات هي المقياس وليس العلم وصدق العبادة والتزام الشريعة[2].

فالمرحلة الأولى لا اعتراض عليها من قبل الباحثين، وأغلب من تناول دراسة التصوف يعتبر هذه المرحلة هي المقياس الحقيقي للتصوف السني الإسلامي، وهو سيرة السلف الصالح من الأمة في عصر الرسول والصحابة والتابعين ومن تبعهم على سيرتهم واقتدى بهم، بل يقيسون على أعمالهم وأقوالهم جميع الأقوال والأفعال التي صدرت بعدهم من المتصوفة، فما وافق منها عملهم أقروه، وما خالف من ذلك كرهوه، وقد اتبع هذا الأسلوب الإمام

---

(1) ظهرالإسلام، الأستاذ أحمد أمين، ص56/ 2 وما بعدها.

(2) لمحات من التصوف وتاريخه، الأستاذ السائح حسين، ص13.

الشاطبي في كتاب الاعتصام عند تناوله للوجد والهيام والجذب والرقص والغناء عند بعض الطوائف[1].

أما المرحلة الثانية، والتي يرى أغلب الباحثين أنها تأثرت بدخول تيارات أجنبية على التصوف نتيجة لحركة الترجمة ودخول أصحاب الديانات الأخرى في الإسلام كالنصارى واليهود والفرس والهنود، فانتشرت الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة «فاستمد التصوف من كل هذه المنابع، فلوّن عند بعض الناس بالزرداشتية الفارسية وبالمذاهب الهندية، ولوّن عند بعض الناس بالنصرانية وعند بعضهم بالأفلاطونية الحديثة، ثم اختلطت هذه العناصر كلها ببعض فكانت نزعات مختلفة، وطرق مختلفة على مدى العصر»[2].

وهذا الرأي الذي ذكره الأستاذ أحمد أمين في ظهر الإسلام، إنما يوافق قول المستشرقين في ذلك، فقد ذكر آدم ميتز: إن المسلمين أحسّوا في أعماق نفوسهم بحاجات جديدة منذ القرن الثالث الهجري، وسرعان ما تقدمت لسدّ هذه الحاجات الديانات القديمة التي كانت مستترة ولا سيما النصرانية، وهي الفلسفة اليونانية المشربة بالنصرانية، وأن الحركة التي غيَّرت صورة الإسلام أثناء القرنين الثالث والرابع ليست في مجموعها سوى نتيجة لدخول التيارات الفكرية النصرانية في دين محمد ﷺ[3] ذلك ما قاله بصورة إجمالية في بداية الفصل التاسع عشر، والذي خصصه للدين، ثم بدأ يفصل القول بتناوله مجموعة من المتصوفة مع ربطهم بالمذاهب أو الفلسفات الأخرى، فقال بأن الحارث بن أسد المحاربي المتوفى 243/ 858 قد تأثر بالنصرانية، وقارن بين قوله وخطبة المسيح، وأن الحكيم الترمذي يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء وأن

(1) انظر الاعتصام للشاطبي، ص258/ 1 وما بعدها.
(2) ظهر الإسلام، المصدر السابق، ص58/ 2.
(3) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم ميتز تعريب الأستاذ محمد الهادي أبو ريدة، ص19.

القول بالفناء هو من أقوال الغنوسطيين القديمة، وأن أبا الخير فهر بن جابر الطائي المتوفى 226/ 836، دخل بلاداً كثيرة من ديار الشام، واجتمع بالنصارى ورهبانهم، إلى آخر هذه الادعاءات التي اعتمد فيها على من سبقه من المستشرقين أمثال رينولد نيكلسون وجولد تسيهر وغيرهم[1] ومما يدل على عدم الارتياح لهذه الأقوال أن عنوان الموضوع الذي كتب فيه هذا الكلام كان للدين الإسلامي، ولكنه لم يتناول من الدين سوى حركات التصوف مركزاً على بعض الأقوال والأفعال لبعض المتصوفة دون غيرهم، واختار من أقوالهم ما كان محلّ جدال بين الفقهاء والمتصوفة مثل أقوال الحلاج وغيره، وكأن الدين الإسلامي الذي عنون به موضوعه ليس إلا التصوف، كما ذكر سقطات بعض من ادّعى النبوءة ونقل إلينا بعض تخاريفهم مما لا يجدر ذكره، فتراه يتتبع الوهن لتشويه التاريخ الإسلامي.

وشايع هذا الرأي الدكتور عمر التومي الشيباني حيث تحدّث عن التصوف في المرحلة الأولى وارتباط التصوف فيها بالزهد والتقوى المتفقة مع مقتضيات الطبيعة البشرية والفطرة السليمة ومبادئ الإسلام، ولم تأخذ شكل المذهب أو الطريقة كما في المراحل التالية، حيث دخلت التصوف عناصر أجنبية بعيدة عن روح الإسلام ومبادئه السامية على يد بعض السائرين في طريقه والمتأثرين بالفكر الفلسفي اليوناني وبالفكر الهندي والفارسي والمسيحي، ولكن أستاذنا الفاضل رغم مسايرته لذلك القول بتأثير العناصر الأجنبية في الفكر الصوفي الإسلامي ونشأة ما يسمى بالتصوف الإشراقي نتيجة لهذا التأثير الأجنبي، يقول: بأن ذلك لم يمنع من استمرار التيار السلفي في التصوف الإسلامي، ومن تبلور حركة إسلامية سلفية متميزة تسير في إطار الإسلام وتتقيد بتعاليمه كما تضمنها الكتاب والسنة، وتقتفي آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم[2].

(1) المصدر السابق، ص19، وما بعدها.

(2) الحركة الصوفية في المجتمع العربي المسلم، مصدر سابق، ص224.

وبالمقابل لهذين الرأيين الأول الذي يقول بدخول الأفكار الأجنبية في التصوف الإسلامي، والثاني: الذي لا ينفي دخول تلك العناصر الأجنبية مع بقاء التصوف السني على طريقة السلف الصالح، هناك رأي آخر ينفي تأثر التصوف الإسلامي مطلقاً بأي مؤثرات خارجية، فهو يرى أن الجانب العملي الأخلاقي في التصوف له أمثلة واضحة في الصدر الإسلامي الأول، فلقد كان الرسول والصحابة والتابعون وما تنطوي عليه حياتهم الروحية من أقوال وأفعال تعتبر منبعاً أصيلاً ومصدراً حقيقياً لهذا الجانب العملي الأخلاقي في التصوف الإسلامي كما يمتاز التصوف أيضاً بنوع خاص من المعرفة لا نجدها في الأنواع الأخرى من الفكر الإنساني والإسلامي، فالمعرفة الصوفية هي معرفة ذوقية كشفية إلهامية باطنية تأتي القلب مباشرة دون إعمال العقل ودون استخدام الحواس، فهي إذن معرفة خاصة[1]، ويدلل صاحب الرأي إلى أن المعرفة الصوفية تأتي من نشاط خاصْ بكل صوفي، فليس من الضروري أن تتشابه البدايات والنهايات عند الصوفية، بل إن الصوفي هو ابن وقته ترد عليه الأحوال في وقت غير التي ترد عليه في وقت آخر، فلا معنى إذن لمحاولات علماء الاستشراق في إرجاع العناصر الجوهرية للتصوف الإسلامي إلى مصادر مختلفة غير إسلامية[2].

وكأن هذا الرأي يقول بأن ما لاحظه بعض الباحثين من تشابه في الأفكار والمعاني التي وصل إليها المتصوفة الإسلاميون مثل محبة الله والحلول والاتحاد والفناء ليست بالضروري أنها مأخوذة أو متأثرة بثقافات أجنبية، بل وصل إليها المتصوفة الإسلاميون بمواجيدهم وذوقهم وإلهامهم لأنها تعتمد على القلب وما ينجلي له من خواطر ومعان يختص بها من كابدها وعانى موجدتها، كما قال ابن خلدون: اختصوا بمواجد مدركة لهم[3]، فقد يكون ما أدركه هؤلاء هنا أدركه

(1) دراسات في التصوف الإسلامي د. محمد جلال شرف، ص9.

(2) المصدر السابق، ص10، ونفس الرأي للدكتور مصطفى غالب، انظر مقدمة كتاب تفسير القرآن لمحيي الدين بن عربي، الجزء الأول، ط دار الأندلس، بيروت، 1981ف.

(3) مقدمة ابن خلدون، ص439.

أولئك هناك ما دامت المعرفة تعتمد على القلب والمواجد والذوق، ولا تخضع لمقاييس علمية متعارف عليها، وليس لها حال تستقر عليه، وتختلف من متصوف إلى آخر، وهذا ما انتهى إليه الأستاذ أحمد أمين في ظهر الإسلام، فبعد أن ذكر في الجزء الثاني تأثر التصوف الإسلامي بمبادئ خارجية نتيجة لدخول غير المسلمين في الإسلام من نصارى ويهود وفرس وهنود وغيرهم، وانتشار الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة فاصطبغ التصوف عند بعض الناس بالزرادشتية وعند البعض بالمذاهب الهندية[1]، عاد في الجزء الرابع من ظهر الإسلام ليشكك في هذا القول، ويتساءل: هل وجود فكرة في إحدى الأمم، ثم وجودها بعد ذلك في المتصوفة دليل على أنها أخذت عنها؟.. فإذا وجد الفناء في البوذية ثم وجدت فكرة الفناء في الصوفية، فهل يدل ذلك على أخذ الآخرين من الأولين؟ ذلك ما يدعو إلى الشك لوجود موانع، منها مثلاً: إن رابعة العدوية التي تكلمت عن الحب الإلهي لم يثبت أنها تلقت ثقافة أجنبية، وهي أول من تكلم عن ذلك فكيف وصل إليها الحب النصراني؟! وبما أن الاتجاهات متحدة والأمزجة متحدة فإنها تتوصل إلى نتائج متحدة أيضاً، لأن عقول الناس في العالم متشابهة، وهي تسير على قوانين منطقية واحدة من مقدمات مشروطة بشروط وأنواع من القياس فلا نعجب إذا وجدنا النتائج العقلية متحدة في العالم، أفبعد هذا نستطيع أن نجزم بتسرب بعض العناصر المختلفة إلى التصوف؟ ويمضي الأستاذ أحمد أمين في تحليله لظاهرة التشابه في أفكار الصوفية مع ما عرف من عقائد من الأمم الأخرى، فيقول: إن هذا في نظري يشبه ما ملئت به كتب الأدب العربي من السرقات الشعرية، فيقولون إن معنى هذا البيت مسروق من ذلك البيت، وهكذا ولا نستطيع الجزم إلا إذا اتحدت ألفاظ البيتين أو أكثر، أما المعاني فهي شائعة في كل الأجواء فيقوم بصياغتها كل شاعر من غير سرقة[2].

---

(1) ظهر الإسلام، ص58/ 2.

(2) ظهر الإسلام، ص157/ 4.

ولم يكتف الأستاذ أحمد أمين بالشك والميل إلى تفسير التشابه في أفكار المتصوفة الإسلاميين ببعض المبادئ التي وجدت عند أقوام آخرين كالحب الإلهي والفناء والحلول واصطباغ الفكر الصوفي بالفلسفة، بوصول الفكر الإنساني إلى تلك الأفكار عن طريق وحدة الاتجاهات والأمزجة فأعطت نتائج متحدة، بل يعترف بصعوبة البحث في هذا المجال ووجود عقدة ليس لها من حلّ لعدم وجود كتابة في هذا المجال من شخص ذي مشاعر قوية يصفها في كتابه، فكثير من الباحثين والمؤلفين ينقصهم التصوف العملي، والمتصوفون البارعون في التصوف تنقصهم الكتابة[1] وينغلق عليه الفهم في مجال التصوف فيقوم بطرح السؤال التالي: هل المتصوف برياضته وتمرنه يرى حقائق خارجية أو يرى أوهاماً داخلية جلبها إليه التعود وانحراف الذهن؟ ويجيب الأستاذ أحمد أمين عن سؤاله: سؤال صعب أغلب من تصوف لم يستطع أن يكتب ومن لم يتصوْف لم يذق حتى يستطيع أن يصف[2].

وهكذا وصل في بحثه بعد سرده لمظاهر التصوف وتاريخه وأعلامه وأفكاره وفلسفته ومقارنتها بالأفكار المشابهة أو المطابقة عند الأمم الأخرى إلى طريق مسدود، وهذه الحقيقة، وهي عدم فهم حقيقة التصوف إلا من قبل المتصوفة، هي التي وصل إليها ابن خلدون بثاقب فكره، فهو العلامة المتخصص في علم الاجتماع، ورغم طول باعه في هذا المجال، فقد كان مختصراً في علم التصوف، واكتفى بتقرير تلك الحقيقة، وبأن هذا العلم لا ينفع فيه دليل وبرهان، فقال: وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك، فأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلّم لهم، وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق ردّاً وقبولاً، إذ هي من قبيل الوجدانيات[3]

(1) ظهر الإسلام، ص77/ 2.
(2) ظهر الإسلام، ص82/ 2.
(3) مقدمة ابن خلدون، ص144.

ومثل ذلك ما وقع في جواب محمد بن إبراهيم بن عباد النفزيّ الرنديّ (ت 848هـ) عن سؤال موجه من الإمام أبي إسحاق الشاطبي، فقد أكد أن الباحث في هذا المجال وفقاً للمقاييس العلمية لا يحظى بحقائق التصوف وكل ما يفهمه لا يخرج عن مبادئ هذا العلم ومقدماته[1].

وخلاصة ما يمكن قوله في هذا المجال هو الميل إلى التشكك الذي طرحه الأستاذ أحمد أمين عن العلاقة بين مبادئ المتصوفة الإسلاميين والمبادئ التي وجدت لدى الأمم السابقة، باستبعاد تأثير هذه الأخيرة في مبادئ التصوف الإسلامي، نظراً لكون ذلك الرأي الذي يقول بدخول العناصر الأجنبية في التصوف الإسلامي كان من وهم المستشرقين، وهم ليسوا جميعاً محل ثقة، فلا يمكن التسليم بقولهم، ولأن هذا العلم لا يفهمه إلا أصحابه فهم أدرى الناس به، وبالتالي فإن حقائقه لا تؤخد إلا منهم وحدهم دون غيرهم، ويؤيد هذا الرأي أحد المستشرقين حيث يقول: إن جذور التصوف كامنة في أعماق الدين الإسلامي، وأنها لا تمت بصلة إلى أية عقيدة أجنبية[2].

وقعت الإشارة ـ فيما سبق ـ إلى الخلاف الذي نشأ بين الفقهاء والمتصوفة، ومنشأ الخلاف في اعتماد الفقهاء على العقل وأحكام الشريعة، وهو ما يعرف بعلم الظاهر، واعتماد المتصوفة على القلب وما يدركه من خلال المواجد، وهو ما يعرف بعلم الباطن، وزاد الخلاف حدة عندما دخلت الفلسفة في التصوف حين قال المتصوفة بالفناء والحلول ووحدة الوجود، فهذه الأفكار أنكرها الفقهاء واعتبروها خروجاً على الدين، وهذا النوع من الخلاف كان في بيئات أخرى، ولم يكن منه شيء في بلادنا، بل وقع الخلاف في الوسائل المتبعة، ولقد شهد تاريخ بلادنا الثقافي على وجود ذلك الخلاف بين الفقهاء

(1) المعيار للونشريسي، ص303/ 2.

(2) كيف نفهم الإسلام، المستشرق كريتجوف شيون، ترجمة الدكتور عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، ط2، 1982ف.

والمتصوفة، من ذلك إنكار الشيخ الدوكالي على تلميذه الشيخ عبد السلام الأسمر الذي أصبح يضرب الدف فتصيبه حالة من الجذب، بل وأمر بحبسه ولما جاء من تشفع فيه قال لهم الشيخ الدوكالي: إن الله لا يعبد بالشطح ولا بالردح ولا بالدفوف ولا بالكفوف[1]، والشيخ الدوكالي في إنكاره على الشيخ عبد السلام الأسمر إنما كان متقيداً بنصوص الشريعة الإسلامية، أما الشيخ عبد السلام الأسمر فاستمر في تلك الطريق، وأتباعه سائرون على نهجه إذ يقومون بضرب الدفوف وينشدون معها المدائح والأذكار، ويرون في ذلك نهجاً صحيحاً تعتمد عليه طريقتهم.

كذلك وقع الإنكار من العلماء على الطوائف الذين يذكرون الله بلفظ الجلالة «الله» أو (هو) بصيغة الغائب، وهم وقوف يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال، وأحياناً يصاب أحدهم بالجذب فيصرع بين القوم، أو يأخذ في هزّ رأسه يميناً وشمالاً، وذكر لنا البرموني المناقشة التي حصلت بين الإمام محمد ابن محمد بن عبد الرحمن الحطاب والشيخ عبد السلام الأمر عندما حضر الأول من مصر لزيارة والده في تاجوراء فحضر إلى لقاء الشيخ عبد السلام الأسمر في مسجد الناقة داخل مدينة طرابلس، فقال له منكراً عليه: «يا عبد السلام ذكروا لنا أنك تؤم الفقراء وتقول معهم بلفظ الجلالة فهذا ذكر غير مشكور، لأنه بدعة لم تنقل عن السلف، وأن الذاكر لا أجر له».

فقال له الشيخ عبد السلام: عمن نقلت ذلك؟

فقال: نقلته من جواب للعز بن عبد السلام.

فقال: يا محمد بن محمد دعني في حالي فهذه ساعة لا يسعني فيها إلا

(1) مواهب الرحيم في مناقب مولانا سيدي عبد السلام بن سليم، تأليف محمد بن عمر مخلوف، ص134، وفتح العلي الأكبر في تاريخ سيدي عبد السلام الأسمر، الأستاذ الطيب المصراتي، ص28.

ربي، فلما سمع الإمام الحطاب ذلك تحركت نفسه وامتلأ غيظاً وغضباً، وقال: ما هذا جواب؟ وما هذه طريقة الصالحين؟!

فقال له الشيخ عبد السلام: انته عما أنت تقول وإلا أطيرك بعلمك المحطب الذي أفنيت عمرك في تحطيبه ولم تدرك له حقيقة[1].

تدلنا هذه المناقشة التي جرت بين أكبر العلماء في عصره، صاحب المؤلفات المشهورة في الفقه، وخاتمة علماء المالكية في الحجاز، وبين المتصوف الكبير الشيخ عبد السلام الأسمر، صاحب الطريقة الصوفية التي انتشرت في شمال إفريقيا وجنوبها، رحمهما الله تعالى، تدلنا على الخلاف بين العلماء والمتصوفة في الطريقة التي يلجأ إليها للوصول والتقرب من الله تعالى فالعلماء يرون أن الوصول لا يتم إلا بالعبادة التي شرعها الله، أما المتصوفة فلهم وسائلهم التي يرونها الموصلة لذلك، يفهم ذلك من استدلال الإمام الحطاب بقول العز بن عبد السلام، وهو من أكابر العلماء، ومن جواب الشيخ عبد السلام الأسمر للإمام الحطاب: أفنيت عمرك في طلب العلم ولم تدرك له حقيقة فكأنه يعني أن هناك حقائق لا تدرك بالعلم والفقه وإنما تدرك بالوجدان والإحساس بالقلب، ولها طرق أخرى موصلة غير طريق العلم.

وحدثت مثل تلك المناظرة أثناء القرن الثاني عشر بين الفقيه العلامة أبي عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، والشيخ محمد النعاس تلميذ الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، ذكرها ابن غلبون بنصها الكامل في كتابه التذكار وفيها أنكر على الشيخ النعاس اجتماع المتفقرة ليلتي الاثنين والجمعة للذكر وإجبار الأتباع على حضورها كرهاً ولم يرد بها نص شرعي، وجواب الشيخ

(1) من كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار للشيخ كريم الدين البرموني المصراتي، مخطوط بمكتبة الأوقاف مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس، ونقل القصة كاملة الأستاذ الطيب المصراتي في كتاب فتح العلي الأكبر، ص25.

النعاس أنها مأخوذة على الشيوخ، وليس له فيها سند شرعي أو قول إمام، وكان آخر كلامه: «هذه طريقة مشايخي لا يسعني تركها كائنة ما كانت»، وعلق على ذلك ابن غلبون: (فمن يومئذ زال ما كان عندي من إنصافه وإتباعه الحقّ، هدانا الله وإياه إلى الصراط المستقيم)[1].

وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري أفتى الشيخ محمد بن أحمد العكاري، وهو من العلماء الذين درسوا في الأزهر الشريف، وله مؤلفات في العقيدة والفرائض والعبادات والتصوف واللغة العربية، ومن أتباع الطريقة القادرية، أفتى بإباحة الدفوف والمزامير لطائفة المتفقرين، فعارضه في تلك الفتوى، الشيخ عثمان مصطفى بن بادي من علماء مصراتة، وألف في ذلك منظومة طويلة من بحر الرجز انتقد فيها تلك الفتوى وقال: بأن الدف والمزمار والطبل والطنبور والأوتار كلها ممنوعة عند العلماء المحققين وهي جميعها زيادة في الدين، ولم يرد بها نص في الشرع[2].

وبالمقابل لهذا الموقف المتشدد من الجانبين العلماء والمتصوفة وتمسك كل منهم برأيه، وكل منهم له أسانيد يستدل بها، نجد المتصوف الكبير الشيخ أحمد زروق رحمه الله، وهو الذي جمع بين العلمين، التصوف والفقه، يختار طريقاً وسطاً بين العلماء والمتصوفة، ولكنه أقرب إلى النهي منه إلى الإباحة فقد قال في السماع والاجتماع: وهو مما تسرع إليه نفوس الجاهلين، وتولع به قلوب الغافلين وتؤثره توجهات الباطلين، وينتفع به ضعفاء المشرفين، وتقف معه حقائق المجانين.. إلى أن يقول... وبالجملة فالسماع من شبه الدين التي يتعين على من استبرأ لدينه وعرضه التبرؤ منها، وهو من حيث صورته يشبه الباطل فيترجح تركه[3].. ولكنه بعد رسمه لهذه الصورة القاتمة للسماع

---

(1) التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان فيها من الأخيار، لمحمد بن غلبون، ص237، ط2.

(2) تراجم أعيان العلماء من أبناء مصراتة القدماء، الشيخ محمد مفتاح قريو، ص119.

(3) عدة المريد الصادق، ص207.

والتحذير منه، ونعت المتمسكين به بالجهل والغفلة والباطل، نجده يجيز السماع الذي «تدعو الضرورة إليه بغلبة حال أو وارد، فيجب الاقتصار على قدره بعد تحقق الضرورة، والذكر في ذلك أولى من القصائد والأزجال» فإذا تحققت حالة الضرورية، وهي ـ كما يفهم من كلامه ـ التي تأتي بصورة عفوية فيجد نفسه بحاجة إلى السماع أو تعود على السماع ولا يستطيع تركه فيصبح نوعاً من الابتلاء به، فيجب حينئذ التقيد بالشروط الخاصة بالسماع المباح، وهي ـ كما حددها الشيخ أحمد زروق ـ على النحو التالي:

1 ـ تصحيح النية في القصد بعد تحقيق الموجب بوجه لا يشك فيه.

2 ـ مراعاة شروطه وآدابه في الزمان والمكان والأخوان والقيام بحقوق الإسلام والإيمان والإحسان.

3 ـ الفرار منه والتقليل لما يقع فيه من اللَّغَط والضرر.

4 ـ أن تعتبر الصدق والحقيقة في مواجيده ومواريثه.

5 ـ تجنب إظهاره وإظهار محبته، بل نفيها رأساً، والأبعاد منه بالغاية[1].

إن ما ذكرته سابقاً من حوادث تاريخية لا يعدو كونه معلومات أردْت الإشارة إليها في تقديم هذا الكتاب الذي قام بتأليفه أحد المتصوفة في مدينة طرابلس الغرب، أما دراسة التصوف فتحتاج إلى مؤلفات خاصة، ودراسات معمّقة في هذا المجال، والقصد هو توجيه الباحثين المتخصصين في هذا المجال إلى دراسة التصوف في بلادنا، وهي التي نشأت فيها أعداد لا بأس بها من الطرق الصوفية، كالزروقية والأسمرية والمدنية وغيرها، فالصراع الذي أشرت إليه سابقاً بين الفقهاء والمتصوفة ليس نفس الصراع الذي دار في بيئات أخرى إسلامية، والذي أدى في بعض الأحيان إلى مصرع بعضهم كالحلاج والسهروردي، والخلاف الذي وقع بين الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل

(1) عدة المريد الصادق، ص208 ـ 209.

من ناحية، وبين شيباني الراعي الصوفي، وبين أبي عمران الأشيب الفقيه وأبي بكر الشبلي الصوفي[1] وقد يكون للحركة الصوفية في ليبيا تأثير في الفكر الإسلامي الصوفي أو تأثّر به، وقد يكون تصوفاً سلفياً بسيطاً، أو متأثراً ـ على رأي البعض ـ بالعناصر الأجنبية التي دخلت في الفكر الصوفي الإسلامي مثل النزعة الإشراقية والباطنية التي تعتمد على التفسير الباطني للآيات القرآنية، فالأمر يحتاج إلى دراسة جادة ومتخصصة.

ذكر أحد الباحثين أن الحركة الصوفية في ليبيا شهدت اتساعاً ونفوذاً في طول البلاد وعرضها إبان العهد العثماني، وأوعز ذلك إلى أسباب منها حالة الفقر والتخلف التي يعيشها السكان، فهي التي هيأت للطرق الصوفية الانتشار بدعوتها إلى الزهد والابتعاد عن الدنيا، واستغلال ذلك الوضع من قبل الحكام الأتراك حتى يعيشوا في بذخ وترف إضافة إلى أن الولاة الأتراك كانوا جهلاء فمستواهم الثقافي لا يزيد عن مستوى السكان[2]، ورغم صحة المظاهر التي أشار إليها الباحث إلا أنها لا تبين حقيقة التصوف في ليبيا، فحالة الضعف في العهد العثماني أتاحت للزوايا أن تقوم بدور كبير في التعليم والمحافظة على العقيدة الإسلامية وأحكامها الشرعية، بالنظر إلى غياب المؤسسات التعليمية والذي يبدو لي أن الحركة الصوفية في ليبيا ـ بغض النظر عن بعض الأفعال المحسوبة على التصوف ـ لا تتعدى التصوف السلفي السني، وهو التصوف الإسلامي الحقّ الذي تتضح فيه الخصائص الإسلامية ويتفق معها في المبادئ والغايات والمقاصد[3].

والتصوف السلفي السني، كما أشار له أستاذنا الفاضل الدكتور عمر التومي الشيباني، يتمتع بالخصائص التالية:

---

(1) دراسات في التصرف الإسلامي، د. محمد جلال شرف، ص17.

(2) المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، الأستاذ تيسير بن موسى، ص67.

(3) الحركة الصوفية في المجتمع العربي المسلم، مصدر سابق، ص225.

أولاً: الإعلاء من شأن الزهد في الحياة، وهو الزهد المعقول الذي لا يبالغ في حرمان الجسد وإذلال النفس.

ثانياً: الاعتماد كلية على نصوص الدين الواضحة في أصوله وقواعده وآدابه ومراتبه ومقاماته وأحواله.

ثالثاً: تأكيده أهمية المعرفة الذوقية الإلهامية الكشفية التي تأتي في القلب مباشرة، دون استخدام الحواس الخارجية، ولا إهمال للعقل.

رابعاً: الاعتراف بكرامات الأولياء، وهي التي تقابل المعجزات بالنسبة للرسل، وتكون أمارة صدق على صحة السلوك.

خامساً: قطع الطريق الموصل للتصوف بأن يتدرج السالك في رياضة روحية ونفسية نحو الصفاء الكامل في مقامات ومراتب وأحوال[1].

لقد ظهرت آراء كثيرة عن علم التصوف والأسباب التي أدت إلى ظهوره فهناك من يرى أن طبيعة الفقه علماً ظاهراً للشريعة، وأن الصوفية حاولوا إقامة التصوف علماً لباطن الشريعة يحاربون به الفقهاء، وهناك من حاول توحيد الفقه والتصوف واعتبارهما علماً واحداً، لأن الفقه قائم على الرواية، أما التصوف فهو قائم على الدراية، وهناك من قال بأن المتصوفة لهم علم خاص بهم يختلفْ عن غيرهم، وهو علم المكاشفات والمشاهدات والخواطر، وثمة من يرى أنهم فرقة خاصة تختلف عن بقية الفرق الإسلامية[2]، وفي هذا السياق نذكر رأي الشيخ أحمد زروق حيث قال: اعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه وتعالى، إذ حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجه إلى الله تعالى، من حيث يرضى بما يرضى، وذلك متعدد، فلذلك ادعاه كل أحد بما هو فيه، وعبر عنه كل أحد بما انتهى إليه منه على قدر القصد والفيض والهمة[3]، وهذا الرأي

---

(1) الحركة الصوفية، د. عمر التومي الشيباني، ص225؛ ولمحات من التصوف، الأستاذ السائح حسين، ص45.

(2) دراسات في التصرف الإسلامي، مصدر سابق، ص16، وما بعدها.

(3) عدة المريد الصادق، ص38.

ليس توفيقاً بين الآراء السابقة بل تعبيراً صادقاً عن حقيقة الفقه والتصوف فكلاهما موصل إلى الله، وأن الطريقة الصوفية لا بد وأن تعتمد على الشريعة والحقيقة الموصلة إليها، فالتزام الشريعة يؤدي للحقيقة، والحقيقة تعتمد على الشريعة فلا بد للمتصوف من العبادة وهي التي تبينها الشريعة، إذن هناك تلازم بين الشريعة والحقيقة، لذلك قال الشيخ أحمد زروق: فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل، ولا عمل إلا بصدق توجه، ولا هما إلا بالإيمان، إذ لا يصحان دونه[1].

أختم القول في هذا الجانب المهم في الفكر الإسلامي، وأعني به التصوف، بأن مجاله رحب وعميق، ومؤلفاته في المكتبة الإسلامية لا حصر لها، وشخصياته في كل عصر ومصر، كل ذلك ساهم مساهمة فعالة في إثراء الفكر الإسلامي الصوفي والفلسفي، وهو ميدان فسيح يحتاج إلى متخصص في هذا المجال، وكل ما ذكرته لا يعدو مقدمة بل تمهيداً لدراسة التصوف عند مؤلف الكتاب الشيخ أحمد بن حمادي رحمه الله، فألفيت نفسي في بحر التصوف الذي لا يحيط به إلا الله سبحانه وتعالى، ولله در ابن الرندي الذي وجه إليه أبو إسحاق الشاطبي سؤالاً عن التصوف ـ ألمحت إلى طرف منه سابقاً ـ فقال في آخر إجابته: «فمن نظر إلى ما رسموه، وقصد إلى تعرف الحقّ منه تشعبت عليه المسالك، ولم يحصل إلا على الحيرة والدهشة، لا سيما من ألف العلوم الظاهرة، وتمرس فيها وجبل عليها، ثم قصد إلى تعلم علوم القوم والتصرف فيها على حسب ما تقتضيه قواعد علمه، فإنه أبعد الناس عنها وأشدهم إفلاساً منها، وكل ما فهمه وأحاط به إدراكه لا يخرج من مبادئ هذا العلم ومقدماته وأما حقائقه فلا يحظى منها بشيء»[2].

غير أن ذلك لا يمنع من المحاولة في فهم بعض ملامح الأفكار الصوفية

---

(1) عدة المريد الصادق، ص38.

(2) المعيار المعرب للونشريسي، ص303/ 12.

التي وردت في هذا الكتاب، فهي تدل على طريقة المؤلف والمبادئ السلوكية التي يدعو إليها، والخصائص التي يرتبط فيها فكره الصوفي مع غيره، أو التي تميزه، وما لهذه الأفكار من أثر في التصوف الإسلامي في بلادنا، كل ذلك في محاولة إثارة الانتباه إلى هذا النوع من الدراسة، عسى أن يحظى من قبل الباحثين المتخصصين كل في مجاله بالتصدي لها واستخلاص النتائج العلمية منها.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

المبحث الثاني

ملامح عن الطرق الصوفية في ليبيا(*)

يحاول هذا البحث إلقاء بعض الأضواء عن الحركة الصوفية في ليبيا وإثارة بعض الآراء حول التصوف الإسلامي بصورة عامة، وجوانب من الحركة الفكرية التي صاحبت وجود التصوف وطرقه الصوفية، بهدف لفت الأنظار إلى الدور المهم الذي لعبه التصوف في المجتمع الليبي، والذي يمكن أن يكون من أهم مميزاته.

وتقتضي الإشارة في البداية إلى أن هذا الموضوع لم ينل حظه من البحث والدراسة رغم وجود الطرق الصوفية في بلادنا منذ أمد بعيد، وقيامها بعدة أدوار مهمة في تاريخ ليبيا خاصة، وشمال إفريقيا بصورة عامة، بل إن الدراسات في مجال التصوف قليلة أيضاً[1]، وما وجد منها لا يعدو عن كونه سيرة ذاتية لبعض

(*) أصل البحث محاضرة ألقيت في المركز القومي للدراسات والبحوث العلمية بطرابلس، ليلة السادس عشر من رمضان، 19/ 11/ 2002ف، ولم تنشر سابقاً.

(1) لعل أهم ما ظهر في ليبيا من دراسات جادة خاصة بالتصوف، هو كتاب الزروق والزروقية، دراسة حياة وفكر ومذاهب وطريقة، تأليف الأستاذ الدكتور علي فهمي خشيم، نشر المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط2، 1980ف، وكتاب لمحات من التصوف وتاريخه، للأستاذ الدكتور السائح علي حسين، منشورات كلية الدعوة الإسلامية طرابلس 1994ف، وكتاب دور التراث في تأكيد الأصالة، للمرحوم الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني، وقد =

رجال التصوف لم تنل حظها هي الأخرى من التحقيق والنشر، ناهيك عن التحليل والدراسة النقدية، وقبل أن ندخل في موضوع الدراسة، ونتحدث عن الحركة الصوفية في ليبيا، نبدأ بإعطاء فكرة مبسطة عن معنى التصوف لغة واصطلاحاً، ونسلط الضوء على بعض الأفكار التي تدور حول التصوف.

وأشير في البداية إلى عدم الإمكان الدخول في تفريعات مدلول المصطلح فهذا يحتاج إلى بحث طويل، ويكفي أن نشير إلى وجود عدة تفسيرات لمعنى التصوف، والأصل اللغوي للكلمة، فهناك من قال: إنها من الصوفة المطروحة التي لا تدبير لها، ومن قال: إن الكلمة مشتقة من الصفة، لأن المتصوف يتحلّى بالمحاسن، ومن قال إنه مشتق من الصوف فهو لباس المتصوفة، ومنهم من قال: إنه مشتق من الصفا أو التصفية، أي صفاء النفس بانقطاعها للعمل بما يرضي الله، وقد مال إلى هذا التفسير الأخير أستاذنا المرحوم: د. عمر التومي الشيباني، لوجود عدة شواهد تؤيده(1)، قال أبو الفتح السبتي رحمه الله:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا جهلاً وظنوا أنه مشتق من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم إلا فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي(2)

أما في الاصطلاح، فهناك تعاريف كثيرة تبلغ الألفين، وليس من السهل اختيار واحد منها، وهذه التعاريف ـ كما يراها الشيخ أحمد زروق رحمه الله ـ تعود إلى أصل واحد، وهو صدق التوجه إلى الله تعالى، وهذا الصدق مشروط

= تضمن بعض الفصول حول الحركة الصوفية في المجتمع العربي المسلم، وأحمد زروق حياته وأصول طريقته، والحركة الصوفية كأحد السبل التي ربطت وتربط الأقطار المغاربية، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2000ف، وكتاب الحجة المؤتاة في الرد على صاحب كتاب إلى التصوف يا عباد الله، تأليف الأستاذ أحمد القطعاني مكتبة جمهورية مصر العربية، ط2، القاهرة 1992ف.

(1) دور التراث في تأكيد الأصالة، المصدر السابق، ص113.

(2) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، للعارف بالله الشيخ أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، ص6/ 1، طبع دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت.

بكونه من حيث يرضاه الحقّ تعالى وبما يرضاه[1]، وهو تعريف جامع مانع من حيث إن التعريف تنطلق من ذاتية ورؤية خاصة، يعبر بها كل متصوف عما يراه في هذا الطريق، وعلى سبيل المثال، نختار أحد التعريفات التي ذكرها متصوف معاصر من ليبيا، حيث قال: «التصوف آية، مبدؤه تسبيح وانغلاق خطاب، ثم قوة في أخذ الكتاب، ثم يقين إتيان حكم بلا اضطراب، ثم من لدنه حناناً واقتراب، ثم تزكية الجناب، ثم تقوي واجتناب، ثم برّ وآداب، وتخل عن التجبر والمعصية والارتياب، وختامه سلام شامل القبل والحال والبعد والإياب»[2].

ذلك فيما يخص التعريف، أما عن نشأة التصوف، فهناك من قال: إن التصوف ينطلق في بدايته من شعور الإنسان بفطرته أن ما يحيط به ليس هو كل الوجود، وأن وراءه حقيقة كبرى تتوق إليها روحه، وتطمئن لدى تصورها نفسه وتسعى جاهدة لتدنو منها وتتمثلها وتستحضرها، فالإنسان في الأصل حيوان شرس يقاتل ويغالب، ثم تأتي لحظات يصرعه فيها الضعف، فيقف ويتأمل من أين أتى؟ وإلى أين يصير؟ وينتهي به الفكر إلى الاقتناع بأنه مخلوق ضعيف وعندئذ يكون التدين[3].

إلا أن هذا التفسير يدلنا على حاجة الإنسان للدين، وهو شامل لكافة البشر ولا يمكن أن نستشف منه نشأة الصوف في بلاد الإسلام، ومع ذلك قد يفيد في معرفة الأسباب التي تجعل المريد ينخرط في طريقة صوفية معينة فتصاحبه حالة القلق والاضطراب التي يمر بها، قبل الاستكانة إلى شيخ

---

(1) قواعد التصوف، للعالم الجليل أبي العباس أحمد بن أحمد زروق، رضي الله عنه، ص 7 ـ 8، تصحيح وتنقيح محمد زهري النجار، مراجعة د. علي مفيد فرغلي، نشر دار الجيل بيروت، 1412 ـ 1992.

(2) حراس العقيدة، تأليف الأستاذ أحمد القطعاني، ص151 نشر مكتبة النجاح، طرابلس ـ ليبيا، 1999ف.

(3) دور التراث في تأكيد الأصالة، مصدر سابق، ص117.

طريقة يتولى تربيته، وهذه بداية التصوف، ولكنها تختلف من متصوف إلى آخر.

وهناك رأي آخر يذهب إلى أن التصوف باعتباره فكرة وعقيدة، وبما لا يخالف أحكام الشريعة الإسلامية، هو منهج تربوي عظيم، يهدف به السالك في هذا الطريق التقرب إلى الله سبحانه وتعالى والحصول على الثواب، فالمسلم بموجب عقيدته يعلم أن حياته الدنيا فانية، وأن مآله إلى دار القرار، وهي الآخرة الباقية، وعليه أن يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه، ولن يكون البشر جميعاً على درجة واحدة في الأعمال، وتلك حقيقة أكدها سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1].

لذلك يسعى المسلمون جميعاً للحصول على الثواب، وكل حسب عمله في الدنيا، هناك من يقف عند التكاليف الشرعية المفروضة على الجميع، فلا يزيد عليها، وهناك من يرغب في التقرب والوصول إلى الله تعالى، فالأول استعمل العقل ووقف عند الأحكام الشرعية، والثاني استعمل القلب ومشاعره في الوصول إلى الله تعالى، وفي ذلك يقول ابن خلدون (غاية أهل العبادات من غير المتصوفة يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه، في الأجزاء والامتثال وهؤلاء ـ أي المتصوفة ـ يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير، فظهر أن أصل طريقتهم كلها، محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات)[2].

ذلك فيما يتعلق بالنشأة الفكرية للتصوف، أي الفلسفة التي يقوم عليها باعتباره طريقة هدفها ومبتغاها التقرب إلى الله تعالى، أما فيما يتعلق بالزمن الذي ظهر فيه التصوف، وعلى رأي ابن خلدون، فقد ظهر التصوف في القرن الثاني

(1) سورة الأحقاف، الآية: 19.

(2) مقدمة ابن خلدون، للمؤرخ الشهير عبد الرحمن بن خلدون، ص440، طبعة قديمة صادرة عن دار الشعب، مصر، دون تاريخ.

الهجري، ذلك أن المسلمين في بداية أمرهم، كانوا أقرب إلى حياة الزهد والتقشف والابتعاد عن زخارف الدنيا، فلما نشأ الإقبال على الدنيا بانتشار الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[1]، أي أن التصوف ظهر بعد الفتوحات الإسلامية، ودخول المسلمين إلى حواضر كبرى كالعراق ومصر، فاستقر بعضهم في تلك الأمصار ينعم بحضارتها ومدنيتها، ونسي حياة الصحراء والتقشف والزهد في الوقت الذي رغب فيه البعض الاستمرار في نمط الحياة التي ألفوا عليها في جزيرة العرب، ومن هنا نشأ التصوف وبدأ في انطلاقه.

هذه مقدمة بسيطة، أردت من خلالها إعطاء بعض الأفكار حول التصوف الإسلامي ونشأته، تمهيداً لإلقاء الضوء على الحركة الصوفية في ليبيا، وإبراز بعض ملامحها، والجدير بالذكر أن موضوع الحركة الصوفية في ليبيا لا يمكن استيفاؤه في دراسة أو بحث مختصر، وإنما يحتاج إلى مؤلفات ومحاضرات وبحوث وندوات، فهو موضوع بكر وغير مطروق، رغم التاريخ الحافل للطرق الصوفية في ليبيا، ونشاطها الاجتماعي والعلمي والاقتصادي، بل والسياسي أحياناً، والتراث الصوفي الزاخر لهذا النشاط الذي لا يزال مستمراً حتى الآن خاصة بعد ملتقى التصوف الإسلامي العالمي الذي عقد في طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ 16 ـ 18 الفاتح 1995ف، والذي حضره أتباع مجموعة كبيرة من الطرق الصوفية في العالم الإسلامي.

ويمكن استعراض ملامح الحركة الصوفية في ليبيا من خلال أربعة مدارك:

الأول: الطرق الصوفية التي عرفت في ليبيا.

الثاني: بعض مشاهير أعلام التصوف فيها.

الثالث: الأسس التي بني عليها الفكر الصوفي الإسلامي.

---

(1) مقدمة ابن خلدون، مصدر سابق، ص439.

والرابع: الحديث عن خصائص المدرسة الصوفية في ليبيا.

ثم نختم البحث بما يتبين لنا من نتائج وملاحظات.

المدرك الأول

الطرق الصوفية في ليبيا

تتكون الطرق الصوفية التي عرفتها بلادنا من عدة أنواع، وهي تنقسم إلى مجموعتين، **الأولى**: طرق نشأت في حواضر أخرى، ثم انتقلت إليها وانتشرت فيها، **والثانية**: طرق نشأت فيها منذ البداية حيث لم تعرف إلا في ليبيا، ولو كان مؤسسها ينتمي أصلاً إلى طريقة صوفية قديمة، حيث اصطبغت بتعاليم مؤسسها الجديد واشتق اسمها من اسمه، فاختصت بشكلها الجديد، مع المحافظة على أصولها الأولى، فكان ابتداؤها من ليبيا، ثم انتشرت بعد ذلك شرقاً وغرباً.

❖ المجموعة الأولى: الطرق الصوفية التي انتقلت إليها

1 ـ الطريقة القادرية:

تعتبر الطريقة الصوفية القادرية من أهم الطرق التي دخلت إلى ليبيا خلال القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، ومؤسسها هو الشيخ عبد القادر الجيلاني (471/ 561هـ ـ 1079/ 1166ف) في بغداد[1]. ويرجح أن الذي قام بنشرها في المغرب العربي، هو الشيخ أبو مدين المغربي الذي أخذ الطريقة عن مؤسسها، وعند عودته توقف في طرابلس وبدأ الدعوة إلى الطريقة وأنشأ لها أول زاوية في طرابلس[2] وتتميز هذه الطريقة بتلاوة أوراد مؤسس

---

(1) معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، تأليف الدكتور إسماعيل العربي، ص229، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط أولى، 1993ف.

(2) المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، تأليف الأستاذ تيسير بن موسى ص67، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العظمى، 1988ف.

الطريقة والذكر الجهري في حلقة الاجتماع، والرياضة الروحية الشاقة، وتقليل الطعام والفرار من الخلق[1] وتواصل انتشار زواياها فيما بعد في جميع أنحاء المدن الليبية، فلا تجد مدينة إلا وتوجد فيها زاوية قادرية، وعادة ما ينتسب إليها أعيان المدن وعلية القوم، لعدم اعتمادها على السماع وما يصاحبه من العزف على الآلات الغنائية والرقص وغيره، وما زالت هذه الطريقة تواصل نشاطها في الزوايا الخاصة بها.

2 ـ الطريقة العيساوية:

تنسب هذه الطريقة لمؤسسها الشيخ محمد بن عيسى، المولود في مكناس سنة 873هـ، وهو في بداية أمره كان شاذلياً، أي من اتباع الشيخ أبي الحسن الشاذلي، الذي ولد في المغرب عام 593هـ، ثم انتقل إلى تونس وأقام في قرية شاذلة بجبل زغوان، ومنها لقب بالشاذلي[2]، وتعتمد هذه الطريقة على قراءة وظيفة سيدي بن عيسى، المعروف عند العامة بحزب سبحان الدائم، وهو في الأصل للشيخ محمد بن سليمان الجزولي (ت 870هـ)[3] وينسب أيضاً إلى الشيخ محمد بن عيسى لأنه تلقاه عن شيوخه[4]، والذي يتضح أن الشيخ محمد ابن عيسى قام بدمج حزب الفلاح والحزب الكبير (سبحان الدائم) وكلاهما للجزولي، وأضاف إليهما التوسل بالأولياء، الذي لم يكن أصلاً في الحزبين فأصبحت صيغته جديدة، ونسبت إلى سيدي بن عيسى[5].

---

(1) لمحات من التصوف وتاريخه، مصدر سابق، ص328.

(2) المصدر السابق، ص319.

(3) محمد بن سليمان الجزولي، تأليف الدكتور حسن جلاب، ص22، تينمل للطباعة والنشر، مركش 1993.

(4) مقدمة شرح وظيفة سيدي محمد بن عيسى، تأليف الشيخ أحمد المسعودي الصيد الأزهري الطرابلسي، ص (س) تقديم الأستاذ عبد الآخر محمد عليوة، مطبعة السعادة ـ مصر، 1396 ـ 1976.

(5) بمراجعة حزب سبحان الدائم المتداول لدى الزوايا الصوفية في ليبيا والمغرب نجده يتكون من المواد التالية: استعادة ومن ضمنها بعض الآيات القرآنية، ثم استغفار وتوحيد وتضرع =

وتعتبر الطريقة العيساوية أكثر الطرق انتشاراً في ليبيا، وينسب إليها العديد من طبقات المجتمع، وتجمع بين تلاوة الأذكار وإقامة الحضرة، إلى جانب فن المألوف الموروث عن الحضارة الأندلسية.

3 ـ الطريقة العروسية:

تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ أبي العباس أحمد بن عروس الذي يرجع نسبه إلى قبيلة هوارة، وأمه من أصول ليبية، ولد سنة 781هـ، بقرية المزاتين قرب العاصمة التونسية، وقد اشتهرت طريقته في شمال إفريقيا، وهي في أصولها تعود للطريقة الشاذلية[1] ولقد أخطأ مؤلف معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، حيث ذكر أنها متفرعة عن القادرية، وأنها أنشئت في زليطن بليبيا[2] والصحيح أنها شاذلية من حيث الأصول، كما أن الطريقة التي قامت في زليطن هي الأسمرية أو السلامية، وهي مشتقة من العروسية، ويرجح أن وفاة مؤسس الطريقة العروسية كانت في سنة 868هـ[3].

= وتصلية على النبي ﷺ، والترضية على الصحابة، ثم التوسل بالأولياء الصالحين، في حين أن الحزب الأصلي للجزولي يتضمن كل ما ذكر خلا التوسل، وهو الذي نشره الشيخ أحمد المسعودي، وقام بشرحه فقط، المصدر السابق، ص213 ـ 219، مع إضافة بعض الأبيات فيها توسل، ولكن ما ذكره الدكتور حسن جلاب، أنه يتكون من جزءين، حزب الفلاح وهو الحزب الصغير للجزولي، ويتضمن الاستعاذة والاستغفار والتوحيد ثم المسبعات العشر، ثم التسبيح وطلب المغفرة والدعاء، والحزب الكبير أو سبحان الدائم، فهو توحيد وتسبيح وتصلية على رسول الله ﷺ، وزيادة من الشيخ محمد السهلي كبير تلامذة الجزولي، (كتاب الجزولي، ص95 ـ 100) من ذلك يتضح أن التوسل قد أضيف بعد الجزولي وربما يكون من سيدي محمد بن عيسى رحمه الله، ولهذا ينسب إليه دون الجزولي، انظر نسخة من حزب سبحان الدائم خاصة بالزاوية العيساوية مدينة سلا المغرب، 1406هـ.

(1) معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، المصدر السابق، ص323.

(2) المصدر السابق، ص282.

(3) مواهب الرحيم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم، تأليف شيخ محمد بن مخلوف، ص321، وهو مختصر من كتاب روضة الأزهار، طبع تونس، 1325هـ، وفي ص92 من هذا الكتاب، يذكر المؤلف أن أساس الطريقة العروسية يعود إلى الطريقة الشاذلية.

4 ـ الطريقة الرفاعية:

وهي تنسب لأبي العباس أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي، المولود بالعراق سنة 512هـ/ 1118ف، درس على بعض فقهاء الشافعية ثم انصرف إلى التصوف وأخذ الطريقة عن خاله، وكان من معاصري الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويعتبر أحد شيوخه[1] والرفاعية تدعو إلى الزهد والامتناع عن قتل الحيوانات وإيذائها حتى ولو كانت مضرة، وقد انتشرت الطريقة في اليمن ومصر والشام واسطنبول، والجزيرة العربية[2] أما في ليبيا فزواياها قليلة جداً ولا تكاد تذكر في بعض المدن.

5 ـ الطريقة التيجانية:

تنسب إلى مؤسسها أحمد بن محمد التجاني، الذي ولد في الجزائر سنة 1150هـ/ 1737ف[3]، وبعد أن تلقى تعليمه الأولي فيها رحل إلى مكة، وأثناء عودته توقف في مصر فتلقى العلم على عدد من الشيوخ، وانخرط في بعض الطرق الصوفية، ثم عاد إلى المغرب حيث أسس طريقته سنة 1781ف، ثم أخذ يجوب أقطار المغرب والصحراء للدعوة إلى طريقته وجمع الأنصار، ومن مبادئ هذه الطريقة التسامح مع غير المسلمين بما في ذلك المبشرين، وبالتالي اتهمت بالتواطؤ مع الاستعمار الفرنسي، أما فرع هذه الطريقة في إفريقيا، فقد كان عكس ذلك حيث تصدى لمقاومة الاستعمار، توفي مؤسس الطريقة سنة 1230هـ/ 1815ف، وليس من المستبعد وجود زوايا لهذه الطريقة في جنوب ليبيا بصورة خاصة، أما في الشمال فهي نادرة أو قليلة جداً.

هذه أهم الطرق الصوفية التي انتقلت من أماكن نشأتها إلى ليبيا،

---

(1) لمحات عن التصوف وتاريخه، المصدر السابق، ص317.

(2) معجم الفرق والمذاهب الصوفية، المصدر السابق، ص187.

(3) لمحات عن التصوف وتاريخه، المصدر السابق، ص313.

وانتشرت بها وصار لها أتباع ومريدون، وأصبحت لها زوايا وحلقات على مختلف العصور، ومنها ما هو موجود حتى الوقت الحاضر، غير أن أكثر الطرق انتشاراً هي الطريقة العيساوية، تليها الطريقة القادرية، ثم الطرق الأخرى، إلا أن ذلك لا ينفي وجود بعض الطرق الأخرى، ولكنها غير مشهورة لقلة أتباعها منها مثلاً الدسوقية نسبة للشيخ إبراهيم الدسوقي، والكتانية نسبة للشيخ محمد عبد القادر الكتاني، والبكرية المتفرعة من الخلوتية نسبة إلى مصطفى بن كمال الدين البكري، وكذلك الزاوية السعدية التي تنسب إلى الشيخ سعد التباني وغيرها[1].

❖ المجموعة الثانية: الطرق الصوفية التي نشأت في ليبيا

نذكر هذه الطرق وفقاً للترتيب الزمني لظهورها:

1 ـ الطريقة الزروقية:

أسسها الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد زروق البرنسي الفاسي المولود في فاس سنة 846هـ/ 1442ف، درس على فقهاء عصره في المغرب، ثم انتقل إلى بجاية للتدريس بها، ثم إلى تونس فطرابلس حيث أخذ على الشيخ أبي العباس أحمد حلولو، ثم إلى القاهرة فالحجاز، ثم عاد إلى المغرب واستأنف الرحلة إلى المشرق مرة أخرى، ثم استقر به المقام في مصراته حيث أسس زاويته، وكانت شهرته قد عمت الآفاق من خلال تجواله، فاستكمل مؤلفاته ووضع وظيفته التي هي أساس طريقته الصوفية فيما بعد، ولكن أساسها هو الطريقة الشاذلية، فيقال إن الزروقية فرع عن الشاذلية، ومهما يكن من أمر فهذه الطريقة انطلقت من ليبيا، وانتشرت فيما بعد في مختلف أنحاء العالم الإسلامي

(1) معجم الفرق والمذاهب الصوفية، المصدر السابق، ص4 ـ 17 ـ 17 ـ 308، ودور التراث في تأكيد الأصالة، المصدر السابق، ص195.

ويعتبر الشيخ أحمد زروق من مجددي حركة الإصلاح الصوفي، إذ تدل مؤلفاته على محاربة البدع والخزعبلات التي لحقت بالتصوف في عصره[1] وكانت وفاة مؤسس الطريقة سنة 899هـ/ 1493ف، ودفن في زاويته بمصراته.

2 ـ الطريقة السلامية أو الأسمرية:

تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ عبد السلام بن سليم بن محمد الفيتوري المولود في زليطن سنة 880هـ درس العلم على عدد من شيوخ بلده وخاصة التوحيد والفقه واللغة العربية والمنطق، وفي بداية أمره لم يكن يميل إلى التصوف كما ذكر في كتابه الوصية الكبرى التي وضعها لبيان طريقته الصوفية[2] ولكنه انجذب إلى التصوف ورجاله فيما بعد، فأخذ الطريقة على الشيخ عبد الواحد الدكالي في مسلاته، وتجول في مناطق عديدة، وتعرض لبعض المشاكل، ويغلب على مؤلفاته الطابع الشعري باللغة الدارجة وجميعها في مجال التصوف، ولكنها ضاعت في الحوادث التي جرت بعد وفاته، توفي رحمه الله سنة 981هـ، ودفن في زاويته بزليطن[3].

يذهب بعض المؤرخين للحركة الصوفية إلى أن السلامية هي العروسية وأن العروسية المعروفة في طرابلس، هي فرع من القادرية[4]، والذي أراه أن السلامية هي الأسمرية، وهي طريقة صوفية نشأت في ليبيا، وإن كان مؤسسها لا ينفي أصلها المشتق عن الطريقة العروسية، فهو حريص على ذكر شيخه أحمد

(1) الكناش، صور من الذكريات الأولى لأحمد زروق، تقديم وتحقيق د. علي فهمي خشيم، ص11، معجم الفرق والمذاهب الصوفية، ص193، دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص29، إصدار أمانة الإعلام والثقافة، طرابلس، ليبيا، 1977ف.

(2) الوصية الكبرى، للقطب الرباني سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري، ص102، طبع مكتبة إحياء الكتب العربية، طرابلس ـ ليبيا، 1378، 1958.

(3) حراس العقيدة، المصدر السابق، ص24، مواهب الرحيم، المصدر السابق، 310.

(4) معجم الفرق والمذاهب الصوفية، المصدر السابق، ص268.

ابن عروس في كل مناسبة[1]، ولكن انتشار الطريقة على يد الشيخ عبد السلام الأسمر واعتمادها على أصول ومبادئ إسلامية، وعلى الحضرة وما يصاحبها من ضرب الطار، وانتشار زواياها في العديد من الأقطار العربية والإسلامية في إفريقيا، يجعل منها طريقة مستقلة وإن كانت تستمد أصولها من الطريقة العروسية، وهي من الطرق الأكثر انتشاراً في الوقت الحاضر إلى جانب الطريقة العيساوية، وتوجد لها زوايا عديدة في أقطار عربية وإفريقية.

3 ـ الطريقة المدنية:

أنشأها الشيخ الفاضل أبو عبد الله محمد بن حسن بن حمزة بن ظافر المدني، ولد في المدينة المنورة سنة 1194هـ/ 1780ف، ودرس على علمائها ثم انتقل إلى المغرب، فصحب الشيخ العربي الدرقاوي حيث أخذ عنه الطريقة الشاذلية سنة 1224هـ/ 1890ف، ثم عاد إلى بلاده، بعد ذلك استأنف الرحلة إلى الشيخ الدرقاوي ومكث معه إلى حين وفاته، فعاد أدراجه، واستقر به المقام في طرابلس الغرب خلال عهد يوسف باشا القرمالي. قام الشيخ محمد المدني ببناء مسجد في الضاحية الغربية لمدينة مصراته، كما أسس بجانبه زاوية للذكر والانخراط في سلك التصوف، ومنها انطلق لنشر دعوته لطريقته الصوفية، وصار له أتباع ومريدون أخذوا الطريقة، والتزموا بعهدها وأورادها، ثم انطلق ليؤسس زوايا أخرى في أنحاء ليبيا وخارجها، حتى عرفت طريقته في شمال إفريقيا والدول المتاخمة للصحراء، وأصبح الشيخ شخصية مرموقة في البلاد بكثرة أتباعه ومريديه، وانتقل إلى رحمة الله سنة 1263هـ/ 1846ف، بعد أن خلف عدّة أبناء قاموا بأدوار مهمة في تاريخ ليبيا في المجال الصوفي والسياسي[2].

(1) مواهب الرحيم، المصدر السابق، وبه عدة صفحات من قصائد الشيخ عبد السلام الأسمر فيها ذكر أحمد بن عروس.

(2) يراجع مقال: دراسة حجج الوقف، وثيقة الزاوية المدنية في مصراته نموذجاً لكاتب البحث ـ جمعة الزريقي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، دبي الإمارات العربية، ص6 ـ 23، العدد 31، أكتوبر 2000ف.

4 ـ الطريقة السنوسية:

أسسها السيد محمد بن علي الخطابي الإدريسي، المولود في مستغانم بالجزائر سنة 1206هـ/ 1791ف، وبعد أن درس في عدة حواضر بالمغرب العربي رحل إلى الحجاز حيث أسس أول زاوية له هناك، ثم جاء إلى ليبيا حيث أنشأ زاوية في الجغبوب، ثم انتشرت زواياه بانتشار طريقته الصوفية داخل ليبيا وخارجها، حيث امتدت إلى تشاد والسودان والنيجر وغيرها، وكانت في بداية أمرها حركة إصلاحية تهدف إلى العودة إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، وهي بعيدة عما يسود غيرها من الطرق من أنواع الهستيريا والخرافات والميل إلى استغلال العوام، وقد خلف مؤسس الطريقة عدة مؤلفات تدل على ما وصل إليه من علم[1]، غير أنه لا ينكر دور بعض منتسبيها في الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي.

هذه هي الطرق التي نشأت في ليبيا، وكثر أتباعها في مختلف الأرجاء وخاصة في بلدان المغرب العربي ومصر والحجاز والدول الإفريقية المتاخمة للصحراء، وساهمت قديماً في نشر الوعي الديني ونشر الإسلام، والتمسك بقواعده وأحكامه، ومحاربة المظاهر التي لا تتفق معه، والحفاظ على اللغة العربية وآدابها، وتدريس علوم القرآن والحديث والفقه والتصوف وغيرها عن طريق الزوايا، كما ساهمت بعضها في محاربة الاستعمار الفرنسي في إفريقيا.

أما في الوقت الحاضر فالباقي منها حالياً بصورة فعالة، هي الطريقة الأسمرية العروسية الأصل، فهي الأكثر انتشاراً، وتوازيها في الانتشار الطريقة العيساوية، يلي ذلك الطريقة القاديرية أما الطريقة المدنية فهي قليلة الزوايا وكذلك الطريقة الزروقية، ورغم اختلاف هذه الطرق في التسميات والأساليب المتبعة في المدائح والأذكار والتربية الصوفية، إلا أن الأستاذ الدكتور عمر

(1) معجم الفرق والمذاهب الصوفية، المصدر السابق، ص215.

التومي الشيباني رحمه الله، يؤكد بأن أساس هذه الطرق جميعاً هو الطريقة الشاذلية، فهي الأصل ولها تأثير في كافة الطرق التي نشأت في شمال إفريقيا والمؤثر القوي في كافة الطرق هو الطريقة القادرية، ومن خلال الشاذلية وما تفرع عنها امتد تأثير القادرية إلى جميع الطرق الصوفية في شمال إفريقيا وفي مصر والسودان وبعض الأقطار الإفريقية المسلمة الأخرى مثل نيجيريا وتشاد والنيجر والسنغال ومالي وغينيا وغيرها[1].

المدرك الثاني

أمثلة لبعض كبار رجال التصوف في ليبيا

لن أتناول مؤسسي الطرق الصوفية التي ظهرت في ليبيا، كالشيخ أحمد زروق، والشيخ عبد السلام الأسمر، والشيخ محمد المدني، رغم أنهم من كبار رجال التصوف، نظراً لشهرتهم وذيوع صيتهم شرقاً وغرباً، ووجود ترجمة لهم في الكثير من المصادر، ويكفينا ما ذكرناه عنهم باختصار.

كما لن أذكر كبار المتصوفة الذين قدموا من بلدان أخرى، واستقروا في ليبيا بعد أن وجدوا فيها مرتعاً خصباً لنشر طريقتهم الصوفية. كالشيخ محمد بن سعيد الهبري، والشيخ محمد بن الإمام، والشيخ عبد الواحد الدكالي، والشيخ فالح الظاهري، وغيرهم[2]، وأقتصر هنا فقط على غيرهم ممن اشتهروا بالتصوف، وكانوا من أبرز رجاله، وأثروا الحركة الصوفية بمؤلفاتهم أو بتلاميذهم الذين نقلوا آراءهم وطريقتهم الصوفية، ولن أتوسع في ذلك، بل أختار نماذج من كل طريقة صوفية فقط.

1 ـ الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي:

ولد بقرية قرقارش بطرابلس الغرب عام 888هـ/ 1483ف، وتلقى علومه بها

---

(1) دور التراث في تأكيد الأصالة، المصدر السابق، ص196 ـ 197.

(2) تراجع تراجم هؤلاء الأعلام في كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لأحمد النائب الأنصاري (ت1335 ـ 1914) الجزء الأول والثاني، نشر دار مكتبة الفرجاني طرابلس.

على عدد من العلماء، من أشهرهم الشيخ أحمد زروق، والشيخ محمد بن عبد الرحمن الحطاب، والشيخ محمد بن زيتون المغربي، ولكن أغلب شيوخه من طرابلس، وبهذا التحصيل العلمي أصبح شخصية علمية فريدة، فهو إلى جانب كونه فقيهاً كبيراً عمل في مجال السياسة، حيث كلفه السلطان العثماني بسفارة إلى المغرب الأقصى مرتين، وهناك وقع له احتكاك مع علماء المغرب، ودخل معهم في مناظرات ساهمت في إثراء الحركة الفكرية بين البلدين، حيث تناول مع فقهاء فاس العديد من القضايا في العقيدة والتصوف وغيرها، وقضى بقية حياته في الجزائر إلى أن انتقل إلى رحمة الله سنة 963هـ/ 1555ف، ودفن هناك وقد ترك مجموعة من المؤلفات جلها في مجال التصوف، والمناظرات التي دارت بينه وبين علماء المغرب، ومن ضمنها تفسير القرآن الكريم[1]، لم يختص بطريقة صوفية معينة، ولكنه درس على عدد من الشيوخ وظائف الشاذلية، ومن شيوخه الشيخ أحمد زروق كما تقدم[2].

2 ـ الشيخ أحمد بن حسين البهلول:

ولد بطرابلس، وبها نشأ وترعرع، ودرس على فقهائها بعض العلوم ومنهم الشيخ أحمد المكني، ثم رحل إلى مصر لطلب العلم فأخذ على العديد من أكابر علمائها الحديث والتفسير والفقه وعلم الكلام واللغة وغيرها، وعاد إلى طرابلس فتولى التدريس بها، له دراية بالأدب وقريحته وقادة في الشعر، وقد نبغ في قصائد الغزل الصوفي على طريقة ابن الفارض، له مؤلفات في الفقه المالكي والفقه الحنفي، والعقائد، ومن أشهر مؤلفات تخميس القصيدة العياضية التي

(1) لمعرفة الكثير من المعلومات حول الشيخ محمد الخروبي، يراجع أعمال ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، وفيها مجموعة كبيرة من المباحث حول هذه الشخصية وآثارها العلمية، مراجعة وتقديم الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، نشر كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1998ف.

(2) شيوخ أبي عبد الله الخروبي الطرابلسي، تقديم وضبط د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، نشر دار أصالة، بيروت، 1999ف.

تتلى عادة خلال شهر ربيع الأول، بمناسبة ذكرى مولد الرسول ﷺ، توفي بطرابلس في 3 رجب 1113هـ والموافق سنة 1701ف، ودفن في مقبرة سيدي منيذر[1].

3 ـ الشيخ أبو راوي بن محمد بن عمران بن عبد السلام الأسمر:

ولد سنة 1043هـ، 1633ف، وأخذ الفقه والنحو والفرائض والحساب على عدد من علماء عصره، كما درس التوحيد والميقات والجداول على علماء المغرب أثناء مرورهم بطرابلس، وقرأ التصوف على الشيخ محمد بن ناصر الدرعي[2]، اشتهر بتدريسي التصوف في مدرسة تاجوراء التي أسسها مراد آغا بعد دخول العثمانيين إلى ليبيا سنة 1551ف، ولهذا يطلق عليها أحياناً مدرسة أبي راوي، له مؤلفات في علم الفلك والميقات، أما تدريسه فكان أغلبه في إقراء الحكم لابن عطاء السكندري، وغيرها من علوم التصوف، وهو من أشهر علماء الطريقة العروسية التي ساهم جده في إشهارها، وبناء الطريقة السلامية أو الأسمرية عليها، وكان سبباً في انتشارها إلى عدة بلدان عربية وإفريقية، توفي رحمه الله سنة 1088هـ/ 1677ف ولكن اختلف في مكان دفنه، حيث ذكر أحمد النائب أنه دفن في زاويته بساحل الأحامد[3] بينما ذكر ابن مخلوف أنه دفن في جربه وقبره معروف وهو الأصح[4].

4 ـ الشيخ محمد بن محمد بن ظافر المدني:

هو ابن مؤسس الطريقة المدنية، ولد في مصراته سنة 1244هـ/ 1829ف أخذ العلم عن والده، كما أخذ عنه طريقته الصوفية، وتلقى العلم على عدد كبير

---

(1) دليل المؤلفين العرب الليبيين، المصدر السابق، ص37، والتذكار لابن غلبون، ص248.

(2) فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، تأليف الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، (ت 1139هـ) مخطوط ص202.

(3) المنهل العذب، المصدر السابق، الجزء الأول، ص251.

(4) مواهب الرحيم، المصدر السابق، ص412.

من العلماء داخل ليبيا وخارجها، حيث رحل إلى صفاقس وسوسة والمنستير وقام بنشر الطريقة المدنية في العديد من الدول، وعنه أخذ عدد كبير من التلاميذ[1]، ونظراً لمكانة والده الاجتماعية والعلمية في شمال إفريقيا، ولمكانة الزوايا المدنية المنتشرة في عدة بلدان، وتصديها للاستعمار الفرنسي[2] فقد حظي الشيخ محمد المدني ابن مؤسس الطريقة بمكانة عالية لدى السلطات العثمانية، حيث دعاه السلطان عبد الحميد إلى بلاطه وقربه إليه، الأمر الذي جعله يقوم بدوره العلمي والصوفي في دار الخلافة وأسندت إليه مشيخة الزاوية الشاذلية في الآستانة[3]، وقد ساهم في علم التصوف بتأليف عدد من الكتب أغلبها في القصائد الصوفية وشرح أصول الطريقة، كما كتب عن الفكرة الإسلامية التي تبناها السلطان العثماني، أي الدعوة للجامعة الإسلامية[4]، وله رحلة سجل فيها الأماكن التي زارها، ولكنها ما زالت مجهولة المكان، توفي في تركيا سنة 1321هـ/ 1903ف[5].

5 ـ الشيخ محمد الضاوي بن يوسف الصادي:

ولد في طرابلس سنة 1267هـ، ظهرت عليه علامة الصلاح منذ صغره حفظ القرآن الكريم على يد الشيخ عبد الحفيظ الطشاني في مدرسة أحمد باشا ثم انتقل إلى زاوية أبي ماضي بالجبل الغربي، ولازم شيخه سيدي محمد البوسيفي ودرس عليه عدة فنون، ثم رجع إلى طرابلس، فأدرك عدة علماء

---

(1) انظر ترجمته في أعلام ليبيا، ص339، والمنهل العذب، ص353/ 1، وشجرة النور الزكية، ص383/ 1، ترجمة رقم 1535.

(2) تاريخ ليبيا في العصر الحديث، تأليف، ن أ بروشتين، ص320 تعريب الدكتور عماد حاتم، نشر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات رقم 28.

(3) شجرة النور الزكية، 1/ 411، ترجمة رقم 1644، أعلام ليبيا، ص363، دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص415.

(4) تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس الغرب، للدكتور صلاح الدين حسن السوري، نشر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

(5) دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص415، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة، ص195/ 9.

كبار، وأخذ عنهم، وتتلمذ على أيديهم، كالشيخ محمد المسعودي، والشيخ محمد العكاري، والعلامة الشيخ محمد كامل بن مصطفى، اشتغل بالتدريس للناشئة، وبالإمامة والخطابة في جامع الصقع بالمنشية، ثم تولى التدريس في عدة مدارس آخرها مدرسة جامع ميزران بطرابلس، له نصائح ومدائح وتآليف منشورة وتخميسات لقصائد مشهورة، كان مالكي المذهب وشاذلي الطريقة، وقد تلقاها عن الأستاذ الشيخ سعد التباني وغيره، توفي رحمه الله يوم الجمعة أوائل ربيع الأول سنة 1330هـ/ 1912ف.

وقد جاء في بعض قصائده الصوفية ما يلي:

سار بالحبّ القفول	ونحى نحو اللوى
هاجني ضرب الطبول	ووهت مني القوى
إذ حدى حاد عجول	زاد بي حر الجوى
خيل أشواقي تجول	للذي هجري نوى
دونه الموت يحول	وهو لله ضوى
دمع عيني كالسيول	غصن عمره قد نوى

ويقول في آخرها:

صلوات للرسول	من سمى للمستوى
بعده شيخا الفحول	وابن عفان أوى
وعلي والبتول	بنت منصور اللوى
وفروع وأصول	من سماوات طوى
صحبة الغرّ العدول	من قفاهم أو روى[1]

(1) النفحات القدسية في الرحلة الحجازية، للشيخ محمد زغوان، ص61 ـ 63، مخطوط محفوظ بالخزانة العامة بالرباط، المغرب، تحت رقم 1830.

6 ـ الشيخ محمد الأمين بن إبراهيم العالم:

ولد بقرية العمروص قرب طرابلس سنة 1272هـ/ 1856ف، كان والده خطيباً لجامع العريفي، فأدبه ورباه تربية حسنة، ثم درس على علماء المنطقة ومنهم عمه محمد بن حسن، ثم انتقل إلى مدرسة أبي راوي بتاجوراء، فأكمل حفظ القرآن، ثم درس الفرائض وعلوم الفقه والفقه العربية وآدابها على عدد من الشيوخ، كالشيخ محمد العكاري، والمشيخ المسعودي الصيد، والشيخ محمد الهنشيري، وأخذ مبادئ التصوف عن الشيخ محمد بن عمرة، وهو رجل مغربي حضر إلى طرابلس، وأقام بها إلى أن مات ودفن بعرادة، وكان صاحب ولاية وكرامة، لم يقم الشيخ الأمين برحلة علمية، ولم يرحل فقط سوى للحج وعاش حياته في ليبيا يتولى مشيخة الزاوية القادرية في المنطقة، كما تولى الإفتاء في الهنشير إلى أن توفاه الله سنة 1431هـ/ 1922ف، وقد رثاه العديد من شعراء البلاد آنذاك نظراً لمكانته العلمية والصوفية[1].

لم يكتب الشيخ الأمين العالم أي مؤلفات فيما أعلم، وإنما تتلمذ على يديه مجموعة من المريدين، وأخذوا عنه الطريقة القادرية، وأصبح بعضهم من الإعلام الذين ساهموا في الحركة الفكرية الصوفية، وأتفوا العديد من الكتب التي ضمنوها تعاليم وآراء شيخهم الأمين العالم، منهم الشيخ أحمد بن حمادي والشيخ محمد بن علي الشريف زغوان، والشيخ علي أمين سيالة.

7 ـ الشيخ أحمد محمد المسعودي الصيد:

ولد في طرابلس سنة 1252هـ/ 1836ف، وبعد أن حفظ القرآن الكريم درس العلوم الشرعية والعقلية على والده، كما تلقى عنه الطريقة العيساوية، وقرأ على علماء عصره في طرابلس، وأصبح له قدم راسخ في العلوم، خصوصاً في

(1) مقدمة كتاب حادي العقول إلى بلوغ المأمول، تأليف الشيخ أحمد بن حمادي، تقديم وتحقيق د. جمعة الزريقي، ص67، نشر جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس، 1998ف.

الفقه والتصوف، كما اشتغل بالتدريس والإرشاد، وكتابة صيغ الوثائق، له عدة مؤلفات، منها شرح على منظومة الشيخ محمد العكاري في مذهب الإمام مالك، وشرح وظيفة سيدي محمد بن عيسى (حزب سبحان الدائم) انتقل إلى رحمة الله سنة 1314هـ/ 1897ف، ودفن في الهنشير[1].

هذه نماذج مختارة من بعض أعلام التصوف في ليبيا، ذكرت ترجمتهم باختصار شديد، وهم يمثلون الطرق الصوفية التي عرفت في ليبيا والتي لا تزال قائمة حتى الآن، وهي الزروقية والعروسية (السلامية الأسمرية) والقادرية والعيساوية، إضافة إلى أعلام آخرين لم ينتسبوا إلى طريقة معينة وهؤلاء الأعلام مع غيرهم ـ ممن لم نذكرهم هنا ـ كان لهم دور بارز في الحركة الصوفية وانتشارها، ورسوخ قدمها في هذه البلاد، وساهموا في ربط العلاقات بين الطرق الصوفية المختلفة، ونشر التصوف في عدة مناطق خارج ليبيا، كما أنهم قاموا بتأليف بعض الكتب في مجال التصوف، والتي كان لها الأثر الفعال في انتشار الطرق الصوفية، وارتباط المريدين بها والإقبال عليها، وإثراء الحركة الفكرية في مجال التصوف.

المدرك الثالث

الأسس التي بني عليها التصوف الإسلامي[2]

ليس من شك في أن التصوف يعود إلى مبادئ إسلامية سامية، تمسك بها سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ويحدد ابن خلدون تلك المبادئ في العكوف على العبادة والتقرب إلى الله تعالى، والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الناس من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق

---

(1) دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص594، ومقدمة شرح وظيفة سيدي محمد بن عيسى، للشيخ أحمد محمد المسعودي، ص9، الطبعة الأولى، 1396 ـ 1976، القاهرة.

(2) يلاحظ القارئ الكريم أن هذا المدرك سبق تناوله في المبحث الأول، ويعود ذلك إلى أن كلاً منهما كتب في مناسبة مختلفة، وذلك ما أدى إلى التكرار.

للعبادة في الخلوة، ونظراً لأن كل الناس ليسوا على هذه الشاكلة فمنهم من يلتزم بالأحكام الشرعية دون زيادة، ومن هؤلاء الفقهاء من غير المتصوفة، فاعتمدوا على أحكام الشريعة الظاهرة، بينما تقيد المتصوفة بالوجدان والمشاعر، ومن هنا نشأ الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة، وهذا الخلاف يصفه الأستاذ أحمد أمين بأنه نكبة من النكبات والمصيبة العظمى، ويضيف في بيان سببه: بأن الإسلام في جوهره لم يكن يفرق بين الاثنين بل يأمل بالأعمال الظاهرة، ويطلب إصلاح الباطن، ومراقبة الله في أدائها فلما كثر الفقهاء وتغلغلوا في الفقه رأيناهم يغالون في مراعاة الشعائر الظاهرة من وضوء وصلاة وزكاة، ومتى تصح ومتى لا تصح دون التعرض للنية ومحاسبة الروح، ومن ناحية أخرى تغالى الصوفية في الأعمال النفسية والروحية، فكان هناك فقهاء وصوفية، وعداء بين الفقه والتصوف[1].

وإذا أردنا معرفة المدرسة الفكرية للتصوف في ليبيا. فعلينا أن نستعرض تاريخ الفكر الصوفي بصورة عامة حتى يمكن تصنيف التصوف في ليبيا، ولهذا يرى بعض الباحثين أن تاريخ التصوف ينقسم إلى عدة مراحل، الأولى تشمل عصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وفي هذه المرحلة لم يكن هناك شيء اسمه تصوف، ولكنه مبادئ كالتي أشار إليها ابن خلدون في المقدمة، العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، الزهد التقشف والابتعاد عن الدنيا والبعد عن الخلق، أما المرحلة الثانية فتبدأ بالقرن الثالث الهجري حيث تسرب إلى الفكر الإسلامي سيل من الأفكار والمعتقدات والمعارف المتعددة نتيجة لحركة الترجمة، وإسلام عدد من معتنقي الديانات الأخرى، وفي هذه المرحلة تأثر التصوف بفلسفات وتصورات أخرى لا صلة لها بالإسلام، مع ظهور شطحات وبدع وممارسات ليست في المرحلة الأولى، وفي المرحلة الثالثة التي تبدأ من القرن الثامن تقريباً سيطرت على التصوف حركة التقليد والمحاكاة وكثرة

(1) ظهر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، ص26/ 5 وما بعدها، دار الكتاب العربي، بيروت، ط5.

الانقسامات، وتعددت الطرق وشاع الارتزاق باسم العبادة والدين والمتاجرة بالبركة، وأصبحت الكرامات وخوارق العادات هي المقياس، وليس العلم وصدق العبادة والتزام الشريعة[1].

فالمرحلة الأولى: وهي عصر الرسول ﷺ والصحابة التابعين، لا اعتراض عليها من قبل الباحثين، وأغلب من تناول دراسة التصوف يعتبر هذه المرحلة هي المقياس الحقيقي للتصوف السني الإسلامي، وهو سيرة السلف الصالح من الأمة في عصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين ومن تبعهم على سيرتهم واقتدى بهم، بل يقيسون على أعمالهم وأقوالهم جميع الأقوال التي صدرت بعدهم من المتصوفة، فما وافق منها عملهم أقروه، وما خالف ذلك كرهوه، وقد اتبع هذا الأسلوب الإمام الشاطبي في كتاب الاعتصام عندما تناول الوجد الهيام والجذب والرقص والغناء عند بعض الطوائف[2].

أما المرحلة الثانية: والتي يرى أغلب الباحثين أنها تأثرت بدخول تيارات أجنبية على التصوف، نتيجة لحركة الترجمة ودخول أصحاب الديانات الأخرى في الإسلام، كالنصارى واليهود والفرس والهنود، فانتشرت الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة، «فاستمد التصوف من كل هذه المنافع، فلون عند بعض الناس بالزردشتية الفارسية وبالمذاهب الهندية، ولون عند بعض الناس بالنصرانية، وعند بعضهم بالأفلاطونية الحديثة، ثم اختلطت هذه العناصر كلها ببعض فكانت نزعات مختلفة، وطرق مختلفة على مدى العصر»[3].

وهذا الرأي الذي ذكره الأستاذ أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام، إنما يوافق قول المستشرقين في ذلك، فقد ذكر آدم متز: أن المسلمين أحسّوا في أعماق نفوسهم بحاجات جيدة في الدين منذ القرن الثالث الهجري، وسرعان ما

(1) لمحات من التصوف وتاريخه، المصدر السابق، ص13.
(2) الاعتصام للإمام الشاطبي، ص258/ 1، دار الفكر، د.ت.
(3) ظهر الإسلام، المصدر السابق، ص58/ 2.

تقدمت لسد هذه الحاجات الدينية القيمة التي كانت مستترة، ولا سيما النصرانية، وهي الفلسفة اليونانية المشربة بالنصرانية، وأن الحركة التي غيرت صورة الإسلام أثناء القرنين الثالث والرابع ليست في مجموعها سوى نتيجة لدخول التيارات الفكرية النصرانية في دين محمد ﷺ[1].

ذلك ما قاله بصورة إجمالية في بداية الفصل التاسع عشر والذي خصصه للدين، ثم بدأ يفصل القول بتناوله مجموعة من المتصوفة مع ربطهم بالمذاهب أو الفلسفات الأخرى، فقال بأن الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة 243هـ/ 858ف، قد تأثر بالنصرانية، وقارب بين قوله وخطبة المسيح، وأن الحكيم الترمذي يقول إن عيسى ابن مريم عليه السلام خاتم الأولياء، وأن القول بالفناء هو من أقوال الغنوسطيين القديمة، وأن أبا الخير فهر بن جابر الطائي المتوفى سنة 226هـ/ 836ف، دخل بلاداً كثيرة من ديار الشام واجتمع بالنصارى ورهبانهم، إلى آخر هذه الادعاءات التي اعتمد فيها على من سبقه من المستشرقين أمثال رينولد نيكلسون وجولد تسيهر وغيرهم[2].

ومما يدل على عدم الارتياح لهذه الأقوال أن عنوان الموضوع الذي كتب فيه هذا الكلام كان للدين الإسلامي، ولكنه لم يتناول من الدين سوى حركات التصوف، مركزاً على بعض الأقوال والأفعال بصورة انتقائية لبعض المتصوفة دون غيرهم، واختار من أقوالهم ما كان محل جدال بين الفقهاء والمتصوفة مثل أقوال الحلاج وغيره، وكأن الدين الإسلامي الذي عنون به موضوعه ليس إلا التصوف، وفي نفس السياق ذكر سقطات بعض من ادعى النبوءة، ونقل إلينا بعض تخاريفهم مما لا يجدر ذكره، فتراه يتتبع الوهن لتشويه التاريخ الإسلامي والطعن في الدين.

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تأليف آدم متيز، تعريب الأستاذ محمد عبد الهادي أبو ريدة، ص19.

(2) المصدر السابق، ص19، وما بعدها.

وتابع هذا الرأي الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني رحمه الله حينما تحدث عن التصوف في المرحلة الأولى، والتي ارتبط فيها التصوف بالزهد والتقوى المتفقة مع مقتضيات الطبيعة البشرية والفطرة السليمة ومبادئ الإسلام ولم تأخذ شكل المذاهب أو الطريقة كما في المراحل التالية، حيث دخلت التصوف عناصر أجنبية بعيدة عن روح الإسلام ومبادئه السامية على يد بعض السائرين في طريقة، والمتأثرين بالفكر الفلسفي اليوناني، وبالفكر الهندي والفارسي والمسيحي، ولكن أستاذنا الفاضل رغم مسايرته لذلك القول بتأثير العناصر الأجنبية في الفكر الصوفي الإسلامي، ونشأة ما يسمى بالتصوف الإشراقي نتيجة لهذا التأثير الأجنبي. . . يقول: «إن ذلك لم يمنع من استمرار التيار السلفي في التصوف الإسلامي، ومن تبلور حركة إسلامية سلفية متميزة تسير في إطار الإسلام، وتتقيد بتعاليمه كما تضمنها الكتاب والسنة، وتقتفي آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم»[1].

وبالمقابل لهذين الرأيين: **الأول** الذي يقول بدخول الأفكار الأجنبية في التصوف الإسلامي، **والثاني**: الذي لا ينفي دخول تلك العناصر الأجنبية مع بقاء التصوف السني على طريقة السلف الصالح، هناك رأي **ثالث** ينفي تأثير التصوف الإسلامي مطلقاً بأي مؤثرات خارجية، فهو يرى أن الجانب العملي الأخلاقي في التصوف، له أمثلة واضحة في الصدر الإسلامي الأول فلقد كان الرسول ﷺ، والصحابة التابعون رضوان الله عليهم وما تنطوي عليه حياتهم الروحية من أقوال وأفعال تعتبر منبعاً أصيلاً ومصدراً حقيقياً لهذا الجانب العملي الأخلاقي في التصوف، كما أن التصوف يمتاز أيضاً بنوع خاص من المعرفة، لا نجدها في الأنواع الأخرى من الفكر الإنساني والإسلامي، فالمعرفة الصوفية هي معرفة

(1) دور التراث في تأكيد الأصالة، المصدر السابق، ص120.

ذوقية كشفية إلهامية باطنية تأتي القلب مباشرة دون أعمال العقل ودون استخدام الحواس، فهي إذن معرفة خاصة[1].

ويستدل أصحاب هذا الرأي على ذلك، بأن المعرفة الصوفية تأتي من نشاط خاص بكل صوفي، فليس من الضروري أن تشابه البدايات والنهايات عند الصوفية، بل إن الصوفي هو ابن وقته، ترد عليه الأحوال في وقت غير التي ترد عليه في وقت آخر. . ، وينتهي هذا الرأي إلى أنه لا معنى إذن لمحاولات علماء الاستشراق، في إرجاع العناصر الجوهرية للتصوف الإسلامي إلى مصادر مختلفة غير إسلامية[2].

فكأن هذا الرأي يقول: إن ما لاحظه بعض الباحثين من تشابه في الأفكار والمعاني التي وصل إليها المتصوفة الإسلاميون، مثل محبة الله والحلول والاتحاد والفناء، ليست بالضروري أنها مأخوذة أو متأثرة بثقافات أجنبية، بل وصل إليها أهل التصوف الإسلامي بمواجيدهم وذوقهم وإلهامهم، لأنها تعتمد على القلب وما ينجلي له من خواطر ومعان يختص بها من كابدها وعانى موجدتها، كما قال عنها ابن خلدون «اختصوا بمواجد مدركة لهم»[3] فقد يكون ما أدركه هؤلاء هنا، أدركه أولئك هناك ما دامت المعرفة تعتمد على القلب والمواجد والذوق، ولا تخضع لمقاييس علمية متعارف عليها، وليس لها حال تستقر عليه، وتختلف من متصوف إلى آخر.

وهذا ما انتهى إليه الأستاذ أحمد أمين عندما تعرض للتصوف في كتابه ظهر الإسلام، فبعد أن ذكر في الجزء الثاني تأثر التصوف الإسلامي بمبادئ خارجية نتيجة لدخول غير المسلمين في الإسلام من نصارى ويهود وفرس

---

(1) دراسات في التصوف الإسلامي، للدكتور محمد جلال شرف، ص9.

(2) المصدر السابق، ص10، ونفس الرأي للدكتور مصطفى غالب، ذكره، في مقدمة كتاب تفسير القرآن لمحيي الدين بن عربي، الجزء الأول، ط دار الأندلس، ببروت، 1981ف.

(3) مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص439.

وغيرهم، وانتشار الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة، فاصطبغ التصوف عند بعض الناس بالزاردشتية وعند البعض بالمذاهب الهندية[1]، عاد في الجزء الرابع من نفس الكتاب ليشكك في هذا القول، ويتساءل: هل وجود فكرة عند إحدى الأمم ثم وجودها بعد ذلك في المتصوفة دليل على أنها أخذت عنها؟ فإذا وجد الفناء في البوذية، ثم وجدت فكرة الفناء في الصوفية، فهل يدل ذلك على أخذ الآخرين من الأولين: ذلك ما يدعو إلى الشك لوجود موانع، منها مثلاً: أن رابعة العدوية التي تكلمت عن الحبّ الإلهي، لم يثبت أنها تلقت ثقافة أجنبية، وهي أول من تكلم عن ذلك، فكيف وصل إليها الحب النصراني؟ وبما أن الاتجاهات متحدة والأمزجة متحدة، فإنها تتوصل إلى نتائج متحدة أيضاً، لأن عقول الناس في العالم متشابهة، وهي تسير على قوانين منطقية واحدة من مقدمات مشروطة بشروط وأنواع من القياس، فلا نعجب إذا وجدنا النتائج العقلية متحدة في العالم، أفبعد هذا نستطيع أن نجزم بتسرب بعض العناصر المختلفة إلى التصوف؟

يمضي الأستاذ أحمد أمين في تحليله لظاهرة التشابه في أفكار الصوفية مع ما عرف من عقائد من الأمم الأخرى، فيقول: إن هذا في نظري يشبه ما ملئت به كتب الأدب العربي من السرقات الشعرية، فيقولون إن معنى هذا البيت مسروق من ذلك البيت، وهكذا ولا نستطيع الجزم إلا إذا اتحدت ألفاظ البيتين أو أكثر، أما المعاني فهي شائعة في كل الأجواء، فيقوم بصياغتها كل شاعر من غير سرقة[2].

ولم يكتف الأستاذ محمد أمين بالشك، والميل إلى تفسير التشابه في أفكار المتصوفة الإسلاميين، ببعض المبادئ والأفكار التي وجدت عند أقوام آخرين كالحبّ الإلهي والفناء والحلول، واصطباغ الفكر الصوفي بالفلسفة بوصول الفكر الإنساني إلى تلك الأفكار عن طريق وحدة الاتجاهات والأمزجة

---

(1) ظهر الإسلام، المصدر السابق، ص58/ 2.

(2) ظهر الإسلام، المصدر السابق، ص157/ 4.

فأعطت نتائج متحدة، بل يعترف بصعوبة البحث في هذا المجال، ووجود عقدة ليس لها من حل بعدم وجود كتابة في هذا المجال من شخص ذي مشاعر قوية يصفها في كتابه، فكثير من الباحثين والمؤلفين ينقصهم التصوف العملي والمتصوفون البارعون في التصوف تنقصهم الكتابة[1]، وينغلق عليه الفهم في مجال التصوف فيقوم بطرح السؤال التالي: هل المتصوف برياضته وتمرنه يرى حقائق خارجية أو يرى أوهاماً داخلية جلبها إليه التعود وانحراف الذهن؟ ويجيب بعد ذلك عن سؤال فيقول: سؤاله صعب، أغلب من تصوف لم يستطع أن يكتب ومن لم يتصوف لم يذق حتى يستطيع أن يصف[2].

وهكذا وصل في بحثه، بعد سرده لمظاهر التصوف وتاريخه وأعلامه وأفكاره وفلسفته ومقارنتها بالأفكار المشابهة أو المطابقة عند الأمم الأخرى إلى طريق مسدود، وهذه الحقيقة، وهي عدم فهم حقيقة التصوف إلا من قبل المتصوفة هي التي وصل إليها ابن خلدون بثاقب فكره، فهو العلامة المتخصص في علم الاجتماع، ورغم طول باعه في هذا المجال، فقد كان مختصراً على علم التصوف، واكتفى بتقرير تلك الحقيقة، وبأن هذا العلم لا ينفع فيه دليل وبرهان، فقال: «وقصرت مدارك من لم يشاركهم في طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجدهم في ذلك، فأهل الفتيا بين منكر عليهم ومسلم لهم، وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً، إذ هي من قبيل الوجدانيات»[3]، ومثل هذا الرأي قال به الشيخ محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي، في جواب عن سؤال وجهه إليه الإمام أبو إسحاق الشاطبي، فقد جاء فيه: أن الباحث في هذا المجال وفقاً للمقاييس العلمية لا يحظى بحقائق التصوف، وكل ما يستطيع فهمه لا يخرج عن مبادئ هذا العلم ومقدماته[4].

(1) ظهر الإسلام، المصدر السابق، ص77/ 2.
(2) ظهر الإسلام، المصدر السابق، ص82/ 2.
(3) مقدمة ابن خلدون، ص441.
(4) المعيار المعرب للونشريسي، ص303/ 12.

وخلاصة ما يمكن قوله في هذا المجال، هو الميل إلى التشكك الذي طرحه الأستاذ أحمد أمين عن العلاقة بين مبادئ المتصوفة الإسلاميين، وأفكارهم التي وجدت لدى الأمم السابقة، باستبعاد تأثير هذا الأخير في مبادئ التصوف الإسلامي، نظراً لكون ذلك الرأي الذي يقول بدخول العناصر الأجنبية في التصوف الإسلامي، كان من وهم المستشرقين، وهم ليسوا جميعاً محل ثقة، فلا يمكن التسليم بقولهم، وأن ما ذكروه من شواهد لا ينهض دليلاً على وجود ذلك التأثير، كما أن هذا العلم لا يفهمه إلا أصحابه فهم أدرى الناس به، وبالتالي فإن حقائقه لا تؤخذ إلا منهم وحدهم دون غيرهم، ولعل هذا الرأي يتفق مع الدراسة التي قام بها المستشرق فريتجوف شيوني، ونشرها في كتاب (كيف نفهم الإسلام)، فقد خصصها لدراسة التصوف الإسلامي، وأن هدفه من الدراسة ـ كما يقول مترجم الكتاب ـ لم يكن تسجيل ما أنتجه التصوف الإسلامي من آثار، وما جاء به من آراء وأفكار، بقد ما كان الهدف دراسة ماهية هذا التصوف، وإثبات أن جذوره كامنة في أعماق الدين الإسلامي، وأنها لا تمت بصلة إلى أية عقيدة أجنبية عن الإسلام[1].

المدرك الرابع

خصائص المدرسة الصوفية في ليبيا

لم يظهر في ليبيا متصوفة يقولون بالآراء الاستشراقية في التصوف كالحلول والاتحاد والفناء وغيرها، وهذه الآراء أدت في بعض الأحيان ـ كما في المشرق العربي ـ إلى تكفيرهم وربما إلى قتلهم أيضاً، وإنما تميزت الحركة الصوفية في ليبيا باتباعها للتصوف السلفي السني الذي لا يصادم الشريعة الإسلامية، ومع ذلك فقد واجه التصوف معارضة شديدة من قبل الفقهاء لبعض الأساليب المتبعة

(1) كيف نفهم الإسلام، للمستشرق كريتجون شيون، ترجمة الدكتور عفيف دمشقية، ص7، نشر دار الآداب، بيروت، ط2، 1982ف.

في الطرق الصوفية، ومن ثم حدث الجفاء المعروف بينهم لاعتماد كل منهم منهج خاص به، ومن ثم فإن أهم خصائص التصوف في ليبيا يتمثل في الخلاف بين المتصوفة والفقهاء، واتباع الطرق الصوفية للتصوف السلفي السني، وفيما يلي تفصيل ذلك:

❖ أولاً ـ الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة:

وقعت الإشارة ـ فيما سبق ـ إلى الخلاف الذي نشأ بين الفقهاء والمتصوفة، ومنشأ الخلاف في اعتماد المتصوفة على العقل وأحكام الشريعة وهو ما يعرف بعلم الظاهر، واعتماد المتصوفة على القلب وما يدركه من خلال المواجد، وهو ما يعرف بعلم الباطن، وزاد الخلاف حدة عندما دخلت الفلسفة في التصوف، حين قال المتصوفة بالفناء والحلول ووحدة الوجود، فهذه الأفكار أنكرها الفقهاء، واعتبروها خروجاً على الدين، وهذا النوع من الخلاف كان في بيئات أخرى، ولم يكن منه شيء في بلادنا، بل وقع الخلاف في الوسائل المتبعة لدى الطرق الصوفية، ولقد شهد تاريخ بلادنا الثقافي وجود ذلك الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة، من ذلك مثلاً: إنكار الشيخ الدوكالي على تلميذه الشيخ عبد السلام الأسمر، الذي أصبح يضرب الدف، فتصيبه حالة من الجذب، فنهاه عن ذلك، بل وأمر بحبسه، ولما جاء من تشفع فيه، قال لهم الشيخ الدوكالي: إن الله لا يعبد بالشطح ولا بالردح ولا بالدفوف ولا بالكفوف(1)، والشيخ الدوكالي في إنكاره على الشيخ عبد السلام الأسمر إنما كان متقيداً بنصوص الشريعة الإسلامية وأحكامها، أما الشيخ عبد السلام الأسمر فيراها حالة خاصة بالمواجيد والأذواق التي يستعملها المتصوف ولذلك أقره عليها، لأنها حالة منا الجذب تخصه هو فقط، ولا يمكن القياس عليها، ولذلك استمر في هذا

---

(1) مواهب الرحيم في مناقب مولانا عبد السلام بن سليم، ص134، وفتح العلي الأكبر في تاريخ سيدي عبد السلام الأسمر، للأستاذ الطيب المصراتي، ص28.

الطريق، وأتباعه سائرون على نهجهه، إذ يقومون بضرب الدفوف وينشدون معها المدائح والأذكار، ويرون في ذلك نهجاً صحيحاً تعتمد عليه طريقتهم.

كذلك وقع الإنكار من العلماء على الطوائف الذين يذكرون الله بلفظ الجلالة «الله» أو «هو» بصيغة الغائب، وهم وقوف يتمايلون ذات اليمن وذات الشمال، وأحياناً يصاب أحدهم بالجذب فيصرع بين القوم، أو يأخذ في هزّ رأسه يميناً وشمالاً، وقد نقل لنا الشيخ كريم الدين اليرموني المناقشة التي حصلت بين الإمام محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب، والشيخ عبد السلام الأسمر، عندما حضر الأول من الحجاز لزيارة والده في تاجوراء، فجاء إلى لقاء الشيخ عبد السلام الأسمر في مسجد الناقة داخل مدينة طرابلس، فقال له منكراً عليه: يا عبد السلام ذكروا لنا أنك تؤم الفقراء (المتصوفة) وتقول معهم بلفظ الجلالة، فهذا ذكر غير مشكور، لأنه بدعة لم تنقل عن السلف، وأن الذاكر لا أجر له!!؟

قال له الشيخ عبد السلام الأسمر: عمن نقلت ذلك؟

فقال: نقلته من جواب للعز بن عبد السلام[1].

فقال الشيخ عبد السلام: يا محمد بن محمد دعني في حالي، فهذه ساعة لا يسعني فيها إلا ربي.

فلما سمع الإمام الحطاب ذلك، تحركت نفسه وامتلأ غيظاً وغضباً وقال: ما هذا جواب، وما هذه طريقة الصالحين!!

فقال له الشيخ عبد السلام: انته عما تقول، وإلا أطيرك بعلمك المحطب الذي أفنيت عمرك في تحطيبه، ولم تدرك له حقيقة[2].

---

(1) هو الإمام العالم الجليل أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي، ت 660هـ، له ترجمة في العديد من المصادر والمراجع، ينظر على سبيل المثال معجم المؤلفين، 5/ 249.

(2) كتاب روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار، للشيخ كريم الدين البرموني المصراتي، مخطوط بمكتبة الأوقاف مركز دراسة جهاد الليبيين، طرابلس، والقصة مذكورة أيضاً في فتح العلي الأكبر، للشيخ الطيب المصراتي، ص25.

فهذه المناقشة التي جرت بين أكبر العلماء في عصره، صاحب المؤلفات المشهورة في الفقه، وخاتمة علماء المالكية في الحجاز، وبين المتصوف الكبير الشيخ عبد السلام الأسمر، صاحب الطريقة الصوفية التي انتشرت في شمال إفريقيا وجنوبها، رحمها الله تعالى، تدلنا على الخلاف بين العلماء والمتصوفة في الطريقة التي يلجأ إليها للوصول والتقرب من الله تعالى، فالعلماء يرون أن الوصول لا يتم إلا بالعبادة التي شرعها الله، أما المتصوفة فلهم وسائلهم التي يرونها الموصلة لذلك، يفهم هذا من استدلال الإمام الحطاب بقول العز بن عبد السلام، وهو من أكابر العلماء، ومن جواب الشيخ عبد السلام الأسمر للإمام الحطاب عندما قال له: أفنيت عمرك في طلب العلم ولم تدرك له حقيقة، فكأنه يعني أن هناك حقائق لا تدرك بالعلم والفقه، وإنما تدرك بالوجدان والإحساس بالقلب، ولها طرق أخرى غير طريق العلم.

كما حدثت مثل تلك المناظرة أثناء القرن الثاني عشر بين المؤرخ العلامة أبي عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، والشيخ محمد النعاس، تلميذ الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، وهو من رجال التصوف، ذكرها ابن غلبون بنصها الكامل في كتابه التذكار، وفيها أنكر على الشيخ محمد النعاس اجتماع المتفقرة (المتصوفة) ليلتي الاثنين والجمعة للذكر، وإجبار الأتباع على حضورها كرهاً ولم يرد بها نص شرعي، وجواب الشيخ النعاس أنها مأخوذة على الشيوخ، وليس له فيها سند شرعي أو قول إمام، «وكان آخر كلامه هذه طريقة مشايخي لا يسعني تركها كائنة ما كانت» فهذا الرد لم يرض ابن غلبون، لأنه لا يستند إلى دليل عقلي أو نقلي من الشريعة الإسلامية، وبالتالي علق على هذا الرد فقال «فمن يومئذ زال ما كان عندي من إنصافه واتباعه الحق هدانا الله وإياه إلى الصراط المستقيم»[1].

---

(1) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، للمؤرخ أبي عبد الله بن خليل غلبون الطرابلسي، ت بعد سنة 1133هـ، عني بتصحيحه والتعليق عليه، الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، ص237، ص2، نشر مكتبة النور طرابلس، 1386 ـ 1976.

وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري أفتى الشيخ محمد بن أحمد العكاري وهو من العلماء الذين درسوا في الأزهر الشريف، وساهموا في نشر العلم وله مؤلفات في العقيدة والفرائض والعبادات والتصوف واللغة العربية ومن أتباع الطريقة القادرية أفتى بإباحة الدفوف والمزامير لطائفة المتفقرين (المتصوفة) فعارضه في ذلك الفتوى الشيخ عثمان مصطفى بن بادي من علماء مصراته، ألف في ذلك منظومة طويلة من بحر الرجز انتقد فيها تلك الفتوى ومن ضمنها هذه الأبيات:

حيث أباح الدف والمزمارا والطبل والطنبور والأوتارا
إذ كلها ممنوعة يا صاحي عند ذوي التحقق والنجاح
جميعها زيادة في الدين ولم ترد في شرع ذي التبيين[1]

❖ ثانياً ــ التصوف السني والسلفي:

يبدو من استعراض الشواهد السابقة، التي تدل على الخلاف السائد بين الفقهاء والمتصوفة في ليبيا، أن هذا الخلاف قد وصل إلى حل توفيقي بين الرأيين وإلا لما استمرت الطرق الصوفية حتى الآن، وبالمقابل لهذا الموقف المتشدد من الجانين العلماء والمتصوفة، وتمسك كل منها برأيه، وكل منهم له أسانيده التي يستدل بها، نجد المتصوف الكبير، الشيخ أحمد زروق رحمه الله وهو الذي جمع بين العلمين، التصوف والفقه، يختار طريقاً وسطاً بين العلماء والمتصوفة، وذلك فيما يتعلق بالسماع، وما يصاحبه به من طقوس ومراسم ولكنه أقرب إلى النهي منه إلى الإباحة، فقد قال في السماع والاجتماع: وهو مما تسرع إليه نفوس الجاهلين، وتولع به قلوب الغافلين وتؤثره توجهات الباطلين، وينتفع به ضعفاء المشرفين، وتقف معه حقائق المجانين. . . إلى أن

(1) تراجم أعيان العلماء من أبناء مصراتة القدماء، تأليف الشيخ محمد مفتاح قريو، ص119.

يقول. . . وبالجملة فالسماع من شبه الدين التي يتعين على من استبرأ لدينه وعرضه التبرؤ منها، وهو من حيث صورته يشبه الباطل فيترجح تركه[1].

ولكن الشيخ زروق بعد أن رسم هذه الصورة القائمة للسماع، والتحذير منه ونعت المتمسكين به بالجهل والغفلة والباطل، نجده يجيز السماع الذي «تدعو الضرورة إليه بغلبة حال أو وارد، فيجب الاقتصار على قدره بعد تحقق الضرورة، والذكر في ذلك أولى من القصائد والأزجال» فإذا تحققت الضرورة وهي ـ كما يفهم من كلامه ـ التي تأتي بصورة عفوية، فيجد نفسه بحاجة إلى السماع، أو تعود على السماع ولا يستطيع تركه، فيصبح نوعاً من الابتلاء به فيجب حينئذ التقيد بالشروط الخاصة بالسماع المباح وهذه الشروط ـ كما حددها الشيخ أحمد زروق ـ على النحو التالي:

1 ـ تصحيح النية في القصد بعد تحقيق الموجب بوجه لا يشك فيه.

2 ـ مراعاة شروطه وآدابه في الزمان والمكان والأخوان والقيام بحقوق الإسلام والإيمان والإحسان.

3 ـ الفرار منه والتقليل لما يقع فيه من اللغظ والضرر.

4 ـ أن تعتبر الصدق والحقيقة في مواجيده ومواريثه.

5 ـ لا تجب إظهاره وإظهار محبته، بل نفيها رأساً، والأبعاد منه بالغاية[2].

يبدو أن هذا الرأي التوفيقي، ساهم في تقليل حدة الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة، وتخفيف حدة الصراع بينها، وبالتالي تعايش الطرق الصوفية مع الحركة الفقهية، ولم تقض إحداهما على الأخرى، ويظهر في هذا الرأي الدور الإصلاحي للشيخ زروق رحمه الله، يضاف إلى ذلك عدم وجود النزعة

---

(1) عدة المريد الصادق، للشيخ أحمد زروق، ص207.

(2) المصدر السابق، ص208 ـ 209.

الإشراقية والباطنية التي تعتمد على التفسير الباطني للآيات لدى المتصوفة في ليبيا، كما أن التصوف فيها لم يتأثر بالأفكار الفلسفية التي دخلت إلى التصوف وبالتالي لم يحتدم فيها الصراع الذي دار في بيئات إسلامية أخرى، والذي أدى في بعض الأحيان إلى مصرع بعضهم، كالحلاج والسهروردي، أو الخلاف الذي قوع بين الإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل من ناحية، وبين شيباني الراعي الصوفي، أو بين أبي عمران الأشيب الفقه وأبي بكر الشبلي الصوفي[1].

يضاف إلى ذلك الظروف التي عاشت فيها البلاد مما يؤثر سلباً أو إيجاباً في أي ظاهرة اجتماعية فكرية أو سلوكية، ومنها حركة التصوف، وحول تلك الظروف يذكر أحد الباحثين: أن الحركة الصوفية في ليبيا شهدت اتساعاً ونفوذاً في طول البلاد وعرضها إبان العهد العثماني، وأوعز ذلك إلى أسباب منها حالة الفقر والتخلف التي يعيشها السكان، فهي التي هيأت للطرق الصوفية الانتشار بدعوتها إلى الزهد والابتعاد عن الدنيا، واستغلال ذلك الوضع من قبل الحكام الأتراك، حتى يعيشوا في بذخ وترف، إضافة إلى أن الولاة الأتراك كانوا جهلاء فمستواهم الثقافي لا يزيد عن مستوى السكان[2].

ورغم صحة المظاهر التي أشار إليها الباحث، إلا أنها لا تبين حقيقة التصوف في ليبيا فحالة الضعف في العهد العثماني أتاحت للزوايا الصوفية أن تقوم بدور كبير في التعليم، والمحافظة على العقيدة الإسلامية وأحكامها الشرعية بالنظر إلى غياب المؤسسات التعليمية، والدعوة إلى الزهد والتقشف في الدنيا لا تعني الابتعاد عن أوامر الدين ونواهيه، وبالتالي ساهمت الحركة الصوفية ـ إلى جانب التعليم ـ في الترابط والتكامل الاجتماعي، وفي جعل سلوك المريدين يتّسم بالطابع الأخلاقي الإسلامي، فالذي يبدو لي أن الحركة الصوفية في ليبيا ـ

---

(1) دراسات في التصوف الإسلامي، المصدر السابق ص17.

(2) المجتمع العربي الليبي في العهد العثماني، المصدر السابق، ص67.

بغض النظر عن بعض الأفعال المحسوبة على التصوف ـ لا تتعدى التصوف السلفي السني، وهو التصوف الإسلامي الحق الذي تتضح فيه الخصائص الإسلامية ويتفق معها في المبادئ والغايات والمقاصد[1].

والتصوف السلفي السني، كما أشار له أستاذنا الفاضل الدكتور عمر التومي الشيباني رحمه الله، يتمتع بالخصائص التالية:

أولاً: الإعلاء من شأن الزهد في الحياة، وهو الزهد المعقول الذي لا يبالغ في حرمان الجسد وإذلال النفس.

ثانياً: الاعتماد كلية على نصوص الدين الواضحة في أصوله وقواعده وآدابه ومراتبه ومقاماته وأصوله.

ثالثاً: تأكيده أهمية المعرفة الذوقية الإلهامية الكشفية التي تأتي في القلب مباشرة، دون استخدام الحواس الخارجية، ولا إهمال للعقل، فهي معرفة فردية خاصة، ونوع من النشاط الروحي الخاص بكل صوفي.

رابعاً: الاعتراف بكرامات الأولياء، وهي التي تقابل المعجزات بالنسبة للرسل وتكون إمارة صدق على صحة السلوك، فمن أقوالهم: إن كل ما كان معجزة لنبي يجوز أن يكون كرامة لولي.

خامساً: قطع الطريق الموصل للتصوف، بأن يندرج السالك في رياضة روحية ونفسية نحو الصفاء الكامل في مقامات ومراتب وأحوال[2].

تلك هي إذن خصائص التصوف السلفي السني، وهو النمط الذي سارت عليه الطرق الصوفية في ليبيا، وهو الذي أرسى دعائمه، من كان فيها من كبار المتصوفة، أمثال الشيخ أحمد زروق، والشيخ عبد السلام الأسمر وغيرهم من خلال سيرتهم الذاتية وأقوالهم في التصوف.

---

(1) دور التراث في تأكيد الأصالة، المصدر السابق، ص120.

(2) المصدر السابق، ص121 ـ 127.

ولعل من خصائص التصوف في ليبيا، وقيامه على التصوف السلفي السني هو اتصاف أعلام التصوف فيها بالجمع بين الفقه والتصوف، وربما يكون ذلك من نتائج الحركة الإصلاحية للشيخ زروق رحمه الله، حيث نلاحظه من خلال الآراء التي طرحت حول التصوف، والأسباب التي أدت إلى ظهوره، فهناك من يرى أن طبيعة الفقه علماً ظاهراً للشريعة، وأن الصوفية حاولوا إقامة التصوف علماً لباطن الشريعة يحاربون به الفقهاء، وهناك من يحاول توحيد الفقه والتصوف واعتبارهما علماً واحداً، لأن الفقه قائم على الرواية، أما التصوف فهو قائم على الدراية، وهناك من قال بأن المتصوفة لهم علم خاص بهم يختلف عن غيرهم، وهو علم المكاشفات والمشاهدات والخواطر، وثمة من يرى أنهم في فرقة خاصة تختلف عن بقية الفرق الإسلامية[1]، فهذا التضارب في الآراء لتفسير ظاهر التصوف، ليس إلا اختلافاً شكلياً، وأن كلاً من الفقه والتصوف، هو طريق موصل إلى الله تعالى، يقول الشيخ أحمد زروق رحمه الله في هذا السياق: «اعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه وتعالى، إذ حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجه إلى الله تعالى، من حيث يرضى بما يرضى وذلك متعدد، فلذلك ادعاه كل أحد بما هو فيه، وعبر عنه كل أحد بما انتهى إليه منه على قدر القصد والفيض والهمة»[2].

وهذا الرأي ليس توفيقاً بين الآراء السابقة، بل تعبيراً صادقاً عن حقيقة الفقه والتصوف، فكلاهما موصل إلى الله تعالى، وأن الطريقة الصوفية لا بد وأن تعتمد على الشريعة، والحقيقة الموصلة إليها، فالتزام الشريعة يؤدي للحقيقة والحقيقة تعتمد على الشريعة، فلا بد للمتصوف من العبادة، وهي التي تبينها وتوضح أحكامها الشريعة، إذن هناك تلازم بين الشريعة والحقيقة وبين الطريقة والحقيقة، ويترتب على ذلك وجود تلازم بين الشريعة والطريقة لذلك قال الشيخ

(1) دراسات في التصوف الإسلامي، المصدر السابق، ص16 وما بعدها.
(2) عدة المريد الصادق، للشيخ أحمد زروق، ص38.

أحمد زروق: «فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعلم، ولا عمل إلا بصدق توجه، ولا هما إلا بالأيمان إذ لا يصحان دونه»[1].

❖ الخاتمة:

بعد هذه الجولة في تاريخ التصوف، والتي كانت بقصد تسليط الضوء على ملامح الحركة الصوفية في ليبيا نصل إلى خاتمة البحث، إلا أنني أشعر مع ذلك أن الموضوع ليس سهلاً، وأن الجهد المبذول قد لا يواكب الطرق الصوفية العديدة التي عرفت في ليبيا، كما لا يواكب نشاطها الفكري وأدوارها الثقافية والاجتماعية وغيرها ومع ذلك سأذكر بعض النتائج التي أسفر عنها البحث، إلا أنها في الواقع تظل مجرد آراء لباحث غير متعمق وأن معرفته أقرب إلى الوصف منها إلى النتائج العلمية، وأستشهد هنا بالإجابة التي قالها أحد علماء التصوف في الأندلس على سؤال وجه إليه من الإمام أبي إسحاق الشاطبي، يدل على صعوبة البحث في مجال التصوف حيث ورد به: **«فمن نظر إلى ما رسموه، وقصد إلى تعرف الحقّ منه تشعبت عليه المسالك، ولم يحصل إلا على الحيرة والدهشة، ولا سيما من ألف العلوم الظاهرة، وتمرس فيها وجبل عليها، ثم قصد إلى تعلم علوم القوم والتصرف فيها على حسب ما تقتضيه قواعد علمه، فإنه أبعد الناس عنها، وأشدهم إفلاساً منها، وكل ما فهمه وأحيط به إدراكه، لا يخرج من مبادئ هذا العلم ومقدمته، وأما حقائقه فلا يحظى منها بشيء»**[2].

نخلص من كل ذلك أن القول: إن بلادنا عرفت العديد من الطرق الصوفية التي وردت إليها من المشرق والمغرب، كما نشأت فيها عدة طرق صوفية

---

(1) المصدر السابق، ص38 ـ 39.

(2) المعيار المعرب للونشريسي، ص303/ 12.

وانتشرت منها إلى أصقاع أخرى، ورغم أنها في الأصل تستند إلى طرق أو مبادئ صوفية قديمة، إلا أنها تطورت في ليبيا، وتأثرت بالأساليب التي وجدت فيها، وأن هذه الطرق بعضها لا يزال قائماً، ومنها ما اندثر ولم يعد له وجود.

كما ظهر في ليبيا متصوفة كبار، ساهموا في تطوير وانتشار الحركة الصوفية في الداخل والخارج، ورغم أن بداية أمرهم كانوا من أتباع طرق صوفية قديمة، إلا أنهم اختصوا بأساليب وأنماط ووظائف، حتى أصبحت تلك الطرق تنسب إليهم دون غيرهم، كالطريقة الأسمرية السلامية التي هي في الأصل طريقة عروسية، وأن الشيخ أحمد زروق يعتبر من مجددي الحركة الصوفية بصورة عامة من خلال سيرته ومؤلفاته التي ساهمت في تصحيح الكثير من المفاهيم والاعتقادات غير المتفقة مع التصوف السلفي السني الصحيح.

• إن المبادئ والوسائل المتبعة في كل طريقة كانت العامل المهم في انتشارها وكثرة أتباعها، فهناك من الطرق الصوفية التي تخاطب الطبقات الخاصة من العلماء والفقهاء فنجد أن معتنقيها قلائل، وهناك من الطرق من اتجهت بوسائلها إلى العامة، وبالتالي كانوا أتباعها من الكثرة بمكان.

إن الحركة الصوفية في ليبيا مجال خصب للدراسات والبحوث في شتى المجالات الفكرية والتربوية والأدبية، وأن هذا المجال لم يحظ للأسف الشديد بأي دراسة جادة متعمقة، لذلك يحتاج إلى توجيه الباحثين للقيام بهذه الدراسات والبحوث الشاملة لكافة جوانب التصوف، فالذي قدم من دراسات في السابق لا يعدو عن دراسة بعض الطرق فقط أو تراجم لحياة بعض المتصوفة.

إن الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة معروف من خلال تاريخ الحركة الفكرية في ليبيا، إلا أنه لم يكن بالحدة والقوة التي كانت في المشرق العربي بالنظر إلى عدم اعتناق المتصوفة في ليبيا للأفكار الإشراقية أو الأفكار الأجنبية ـ كما يعتقد البعض ـ أو كان متأثراً بالفلسفة بل كان التصوف في ليبيا تصوفاً

سلفياً سنياً لا يتعارض مع الدين الإسلامي، وبالتالي فالخلاف بين الفقهاء والمتصوف لم يكن عميقاً، بل كان اعتراض الفقهاء ينصب على الأنماط والوسائل المستعملة في الذكر والسماع والاجتماع.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

المبحث الثالث

من أدبيات التصوف في ليبيا(*)

يعدّ الشيخ أبو العباس أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الزاهد الكبير من مشاهير المتصوفة، ولد سنة 500هـ، (1106 ـ 1107م) تفقه على مذهب الشافعي، وتصوّف وجاهد نفسه حتى انتهت إليه الرئاسة في علوم التصوف وكشف مشكلاتها، واجتمع به خلق كثير، وأحسنوا فيه الاعتقاد، وصار له أتباع يطلق عليهم الطائفة الرفاعية، وتوفي رحمه الله سنة 598هـ (1202م).

يروى عنه كرامات كثيرة، منها أنه لما قام بالحج وقف تجاه الحجرة النبوية الشريفة وأنشد:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها   تُقبل الأرضَ عني وهي نائبتي
وهذه نوبة الأشباح قد حضرت   فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فخرجت إليه اليد الشريفة من القبر حتى قبلها والناس ينظرون، هذه الحكاية ذكرها الصاوي في حاشيته على شرح الخريدة للشيخ أحمد الدردير ص80، ولست هنا في سبيل مناقشة صحة الراوية من عدمها، ولكن الذي يهمنا تأثيرها في رجال التصوف الإسلامي وخاصة في بلادنا، فالملاحظ على رجال

(*) نشر في صحيفة الدعوة الإسلامية، العدد 577، بتاريخ 21/ 1/ 1998ف.

التصوف أنهم ينقلون عن بعضهم سيرتهم الذاتية وكراماتهم وأشعارهم وأقوالهم ومرائيهم الصوفية، فيتأثرون بها ويتفاعلون معها، وتصدر عنهم تجاهها أحوال وأقوال وأفعال، وهم لا يناقصون بعضهم، وهذه التأثيرات بجميع مظاهرها تدل على ارتباط المتصوفة في سلك واحد وإن اختلفت طرائقهم أو تباعدت بينهم الديار، ومن خلال هذا التأثير قد يتناولون نفس المعنى في التعبير، فقد يكون في المدائح والأذكار أو التسابيح أو الحكم، وقد يأتي في شكل تشطير أو تخميس الأبيات الشعرية التي تصدر عنهم، ومن هنا ارتبط الأدب الصوفي بعضه ببعض، لا غرو في ذلك إذ إنه ينبع من مشكاة واحدة، وهي علم التصوف وقواعده.

وغير خاف المعنى الصوفي الذي تناوله الشيخ أحمد الرفاعي وخاصة في البيت الأول، حيث عبّر عن شوقه إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ عندما كان بعيداً عن المدينة المنورة، كان يبعث بروحه إليه لتقوم من فرط شوقها بتقبيل الأرض التي وطئها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفي قيامها بذلك إنما هي نائبة عنه، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى تلك البقاع، وهو تصوير خيالي جميل قد يستعمله الشعراء الآخرون غير المتصوفة في الشوق إلى الحبيب والرغبة في الوصول إليه، لكن الشاعر الصوفي استعمله هنا في قالب يتفق مع مبادئ التصوف الإسلامي، وهو الشوق إلى زيارة قبر المصطفى ﷺ.

ومن الشعراء الليبيين الذين تأثروا بهذه الصورة الصوفية الشاعر الأستاذ الشيخ أحمد الشارف رحمه الله، فقد ورد في ديوانه بعض القصائد والمقطعات ذات الطابع الصوفي، منها تخميسه للبيتين المذكورين على النحو التالي:

لله أعتاب محبوب أقبلها ونفحة الوصل قد هبت شمائلها

لطالما كنت في سرى أؤملها (في حالة البعد روحي كنت أرسلها)

(تقبل الأرض عني وهي نائبتي)

ولي جفون على ذكراه كم سهرت لكنها اليوم عن لقياه قد سكرت
ماتت من الشوق أرواح وما قبرت (وهذه دولة الأشباح قد حضرت)
(فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي)

لا شك أن التخميس يدور حول نفس المعنى الذي أراده قائل البيتين الشيخ أحمد الرفاعي، وفيه زيادة في توضيح المعاني المقصودة، وبه صور بلاغية غير خافية تدل على مهارة الشيخ أحمد الشارف، وليست هنا في سبيل تحليل النص نظراً لضيق المجال، ولكن الشطرة الثالثة في تخميس البيت الثاني (ماتت من الشوق أرواح وما قبرت) فيها أكثر من دلالة الأولى إبداعية: وهي الإتيان بصورة غير مألوفة في الواقع، فالشاعر يقول بأن روحه قد ماتت من الشوق إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ ومع موت روحه لم يقبر، أي هو حيّ ميت حيّ لأنه لم يدخل القبر، أما روحه فقد ماتت من الشوق، وهنا جمع بين الموت والحياة وذلك شيء غير مألوف، فيكون إبداعاً في الشعر، أما الثانية: فهي صوفية قد تدخل في الفكر الإشراقي الذي يختص به التصوف، والمعنى يقترب من نظرية الفناء الذي قال بها بعض المتصوفة، فهو أي الشاعر حيّ بالله ميت في الواقع، فأساس الحياة الروح وقد ماتت من الشوق إلى الله، ومع ذلك لمْ يقبر تحت الثرى، ولا يعني ذلك أن الشيخ أحمد الشارف يعتنق الفكر الإشراقي فهذا القول يحتاج إلى دراسة لكل نصوص الشاعر وإنما حاولت تقريب المعاني والإلماح إليها.

وننتقل إلى متصوف ليبي آخر تأثر بهذين البيتين وهو الشيخ الفقيه المتصوف أحمد بن محمد بن حمادي (1864 ـ 1948ف) حيث قام بتخميس البيتين واقتبس منهما بيتين آخرين، وذلك على النحو التالي:

شوقي إلى روضة الهادي أقبلها لأني في السر عن شوق أمثلها
فاسمح بوصل لمن زكت فضائلها (في حالة البعد روحي كنت أرسلها)
(تقبل الأرض عني وهي نائبتي)

كم لي بها شغف يا طال ما سهرت لها جفوني ومن وجد بها انفطرت

فامنن بسر يزكي روحي إن شكرت (وهذه نوبة الأشباح قد حضرت)

(فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي)

أما المعنى الذي حاول الشيخ بن حمادي أن يضيفه في التخميس، فهو لا يقوم بإرسال روحه كما قال الشيخ أحمد الرفاعي، بل إنه يشتاق إلى الروضة الشريفة لكي يقبلها، وقد بلغ به الشوق إلى أن يتخيل في السر أنه يقوم بتقبيلها ويطلب من الله أن تتاح له الفرصة لزيارة الروضة التي وردت في فضائلها أحاديث نبوية شريفة، وفي تخميس البيت الثاني بيّن الشاعر شغفه الشديد بهذه الروضة لدرجة أنه كان يسهر الليل ويبكي شوقاً إليها، وكابد من الوجد حتى انفطرت جفونه، وفي الشطرة الثالثة يدعو الله أن يمنّ عليه بالسر الإلهي الذي يزكي روحه ويسمو بها، تلك هي المعاني الصوفية التي وردت في تخميس الشيخ بن حمادي، ويلاحظ التغير في البيت الأصلي الثاني، حيث وردت نوبة الأشباح بدلاً من دولة الأشباح وكلا التعبيرين يدخل في كلام المتصوفة الذي يحتاج إلى عناء في الفهم والإدراك.

اقتبس الشيخ ابن حمادي أيضاً من بيتي الشيخ أحمد الرفاعي المعنى وصاغه في بيتين من عنده كما يلي:

في كل حين إليك روحي أرسلها تحيي روضك الحسناء وتنظرها

وهذه نوبة الأرواح ننشرها فامنن لروحي بسر منك يسعدها

جاء الاقتباس مغايراً في المعنى وإن كان يعتمد على نفس الفكرة، فالشيخ أحمد الرفاعي كان يرسل روحه في البعد إلى أن تصل إلى الروضة الشريفة، بينما الشيخ أحمد يرسل روحه في كل حين سواء في البعد أم في القرب، ولكن الروح هنا لا تقبل الأرض بل تقوم بتحية الروضة التي وصفها بالحسناء وتنظر إليها واستعمل الشيخ ابن حمادي هنا نوبة الأرواح بدلاً من المصطلح الأصلي دولة الأشباح والذي غيره في التخميس نوبة الأشباح، ولعله بذلك ساهم في توضيح

المعنى الصوفي المقصود بدولة الأشباح، أو نوبة الأرواح، ويخيل إليّ أنها تعني حالة الصفاء والتجلي التي يتقرب فيها الإنسان الصوفي من الله تعالى، فينسى نفسه وكل ما يدور حوله، إضافة إلى تركه كل ملذات الدنيا وشهواتها في تلك اللحظة، فيتحول إلى أشبه بالشبح منه بالإنسان وهذه الحالة التي تبدأ بالمجاهدة النفسية ثم بالذكر والمدائح والتسبيح يتحول فيها الصوفي رويداً رويداً إليها وعندما يصلها يكون أقرب إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في استغراق وشفافية يصعب تصويرها والكتابة عنها، عندها يدعو الله بما في نفسه لن يكون دعاؤه للدنيا أو لغرض مادي، بل للمزيد من التقرب إلى الله والوصول إليه، ويلاحظ أن الشيخ ابن حمادي يطلب السر الذي يزكي روحه ويسعدها، وهو السر الإلهي.

وبهذه المناسبة ننقل تخميساً لهذين البيتين قاله أحد كبار المتصوفة الشعراء في الشام، وهو الشيخ عبد الغني النابلسي ـ رحمه الله ـ وله مدائح كثيرة وقصائد صوفية، وقد طبع له أكثر من ديوان، وقد جاء تخميسه في شكل شرح للمناسبة التي قيل فيها البيتان، وللقارئ الكريم أن يقارن بينه وبين الشيخ أحمد الشارف وتخميس الشيخ أحمد بن حمادي.

مقالة ابن الرفاعي كان حاصلها ... لحجرة المصطفى شوقاً يخاملها

قد جاءها ثم ناداها سائلها ... (في حالة البعد روحي كنت أرسلها)

(تقبل الأرض عني وهي نائبتي)

لواعج الشوق في أحشائه استعرت ... والقلب يرعد والأجفان قد مطرت

يا طالما عين قلبي وجهك انتظرت ... (وهذه دولة الأشباح قد حضرت)

(فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي)

عزيزي القارئ، هذه صورة من الصور الكثيرة لأدبيات التصوف في ليبيا حاولت تقديمها مع شيء من الشرح بقصد تنبيه الباحثين المتخصصين إلى العناية بالأدب الصوفي في بلادنا، وإلى اللقاء في صورة أخرى بإذن الله.

المبحث الرابع

مقدمة الشيخ زغوان في أحكام الولي(*)

يعتبر الشيخ امحمد بن علي بن محمد الشريف زغوان من أعلام التصوف في بلادنا، ومن الذين لم ينالوا حظّاً من الدراسة رغم المؤلفات العديدة التي تركها، وهي لا تزال مخطوطة لحد الآن، ولد في مدينة طرابلس سنة 1315هـ (1897 ـ 1898ف) فحفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره ثم شرع في تحصيل اللغة العربية والعلوم الدينية على أفاضل المشائخ في طرابلس، حتى نال من العلم قسطاً وافراً، وتولى عدة وظائف دينية وقضائية وإدارية، له عددٌ من المؤلفات تدل على طول باعه ومكانته العلمية، يغلب على جلها الطابع الصوفي، وهو من أتباع الزاوية القادرية وقد أخذ الطريقة على الشيخ محمد الأمين العالم، ومن آثاره العلمية عدة كتب في التصوف، وديوان شعر لم ينشر ورحلة حجازية يقوم أحد الأساتذة الزملاء بتحقيقها حالياً، ومنظومة من بحر الرجز أطلق عليها ألفية المواهب السنية في مناقب الحضرة الأمينية، له ترجمة في دليل المؤلفين العرب الليبين، ص401، ونبذة مختصرة في وريقات بعنوان (بعض أعلام الزاوية القادرية في طرابلس) توفي رحمه الله سنة 1392هـ، 1972ف.

(*) نشرت في صحيفة الدعوة الإسلامية، العدد 578، بتاريخ 28/ 1/ 1998ف.

تأثر الشيخ زغوان بالشيخ محمد الأمين العالم الذي أخذ عنه الطريقة الصوفية وتتلمذ عليه، وتحصل منه على الإجازة في الطريقة القادرية وأورادها وقد رثى شيخه عقب وفاته بمرثية تتكون من ثلاثين بيتاً، جاء في بدايتها:

الأمــــر لله فـــمـــا شـــاء فـــعـــل ســـــوى الله ذلـــيـــل أو أذل

هــذه أفــعــالــه قــد شــوهــدت هــذه أحــكــامــه عــزّ وجــل

لم يكتف الشيخ زغوان برثاء شيخه فحسب، بل وضع فيه منظومة طويلة بلغت ألف بيت جعلها في مناقب شيخه لا تزال مخطوطة لم تنشر بعد، وذلك جرياً على عادة الفقهاء والشيوخ الذين يتأثرون بمن تلقوا عنهم العلم والمعرفة أو الطريقة الصوفية، فيضعون تأليف في سيرتهم وعلمهم وكراماتهم، وهذا النوع من التأليف يدخل في عالم التراجم التي تؤرخ للرجال، ومن خلالها يمكن معرفة الشيء الكثير عن حياتهم وعلومهم وثقافاتهم وتأليفهم وشيوخهم أو تلاميذهم، ومن خلال هذه التراجم يمكن التأريخ للحركة العلمية أو الفترة الصوفية التي عاش فيها هؤلاء الشيوخ، كما يمكن للباحث الاستعانة بهذه المصادر والمراجع في سبيل إعطاء صورة صحيحة وقريبة من الواقع للحياة العلمية والثقافية خلال تلك الفترة، وتزداد أهمية التراجم إذا كانت الحقبة محل الدراسة خالية من كتابات تاريخية تغطيتها.

وإذا كان الشيخ زغوان قد اتبع المنهج القديم في الترجمة لشيخه أسوة بغيره من الفقهاء أو رجال التصوف، إلا أنه اتبع أسلوباً في التأليف مغايراً فيما يبدو لغيره من المؤرخين الذين استعملوا النظم بدلاً من النثر، فقد جرت عادة النظام أن يبدأ بقصيدة تطول أو تقصر على حسب القدرة والتمكن وما يرد على الناظم من خواطر ومعلومات دون تقسيم القصيدة أو فقرات، اللهم إلا إذا كانت في مجال المنظومات الفقهية إذ يقتضي الأمر تقسيمها إلى أبواب توافق أحكام الفقه المختلفة، ولذلك نستغرب مسلك الشيخ زغوان في ألفيته التي خصصها

لمناقب شيخه الأمين، حيث قسمها إلى عدة أبواب ولكل باب عنوان خاص به أدرج تحته مجموعة من الأبيات بحسب الموضوع الذي تناوله.

وقد يتوافق الشيخ زغوان مع غيره من النظام في ذلك، فالتراث العربي كثير يصعب على المرء أن يطلع عليه جميعاً حتى يحكم على غيره بأن له السبق في ذلك أو لم يكن كذلك، فالاستقراء الكامل يكاد يكون مستحيلاً، ولكن الجديد في الطريقة التي أتبعها الشيخ زغوان في ألفيته هو المقدمة التي وضعها فيها قبل الحديث عن مناقب شيخه.

بدأ الشيخ زغوان ألفيته بتمهيد يتكون من ستين بيتاً كمدخل للألفية، قال في أولها:

قال محمد زغوان لقباً ابن علي الشريف نسبا

المغربي مولداً المالكي القادري مشربا

جرياً على عادة الشعراء الشيوخ أو الفقهاء ذكر اسمه ولقبه مع اسم والده وذلك لبيان نسبه الشخصي، ثم عرج على ذكر بلده، فقال المغربي نسبة إلى طرابلس الغرب، واللفظ يشمل الموطن الصغير أي المدينة التي ولد بها والوطن الكبير وهو المغرب العربي، ثم بين المدرسة الفقهية التي يقلدها، وهي المذهب المالكي السائد في أنحاء المغرب العربي والأندلس وإفريقيا، ولارتباطه بطريقة صوفية قام بتوضيحها فأشار إليها بقوله القادري مشرباً، أي أنه ينتسب إلى الطريقة القادرية، وبعد انتهاء هذا التمهيد وضع مقدمة تتكون من مائة وستة وتسعين بيتاً، لم يضع لها عنواناً مستقلاً، بل ذكر أنها مقدمة تحتوي على مباحث، فماذا تضم هذه المقدمة؟ وما هي المباحث التي وردت بها؟

تضم هذه المقدمة خمسة عشر مبحثاً، وضع لكل مبحث عنواناً يبين ما ورد من علوم أو أحكام خاصة بالتصوف وذلك على النحو التالي:

1 ـ **المبحث الأول**: في حقيقة الكرامة وأنها جائزة شرعاً وعقلاً والدليل

القرآني على وجودها، وأنها معجزة للنبيّ المتبوع والدليل على وجود الولاية وغير ذلك.

2 ـ **المبحث الثاني**: في تقسيمها إلى ظاهرة وباطنة (والمقصود الكرامة).

3 ـ **المبحث الثالث**: في حقيقة الولي وتفسير الولاية بالآية القرآنية.

4 ـ **المبحث الرابع**: في تقسيم الولاية على قسمين والخلاف على أنها كسبية أو وهبية.

5 ـ **المبحث الخامس**: في تقسيم الوليّ إلى سالك ومجذوب وكلاهما على قسمين.

6 ـ **المبحث السادس**: في حالة الوليّ إذا صحا من سكره والغالب عليه إن كان سالكاً.

7 ـ **المبحث السابع**: في أن معرفة الولي أصعب ما تكون وأن الأدب مع أهل الوقت من علامات الفتح وترك الانتقاد ولزوم الاعتقاد باب الرّبْح.

8 ـ **المبحث الثامن**: في أن الولي هل يعرف نفسه أم لا؟ وهل له نفع وتصرف بإذن الله بعد الموت أو لا؟

9 ـ **المبحث التاسع**: في الأفضلية والتفضيل وأنه لا يجوز بالرأي إلا بنص واضح، وذكر من وردت به السنة بفضلهم على غيرهم، والإمساك عما لا تعيين من تفضيلهم على حسب ما ذكر في الأصول.

10 ـ **المبحث العاشر**: في الترغيب في العلم النافع والإخلاص في طلبه وأنه حجة على من لم يعمل به.

11 ـ **المبحث الحادي عشر**: في الصحبة وما يتعلق بها من بعض ما يلزم وأنها الكنز فأحرص عليه تغنم.

12 ـ **المبحث الثاني عشر**: في محبة أهل الله وما لها من الشرف العالي والجاه.

13 ـ **المبحث الثالث عشر**: في الخلاف بين الجذب والسلوك أيهما أفضل.

14 ـ **المبحث الرابع عشر**: في زيارة الأولياء وأنها من أفضل الأعمال إذا استوفت الآداب.

15 ـ **المبحث الخامس عشر**: في كثرة الطرق الموصلة إلى الله تعالى، وأنها بعدد الأنفاس كما لا يخفى على الحذاق الأكياس.

تلكم هي المباحث التي تضمها هذه المقدمة، وتحت كل مبحث عدة أبيات من النظم تتناول موضوع المبحث تفصيلاً، وبذلك جاءت هذه المقدمة في شكل كتاب خاص بأحكام الولاية في علم التصوف، وما يتعلق بها من شروط وعلامات وتقسيمات، وعلاقة الولي بغيره من الناس وما يجب على أصحاب الطرق الصوفية تجاه الأولياء وكراماتهم، وأحكام زياراتهم، وطرق التصوف وأنواع الولاية وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالتصوف.

وما من شك في أن هذه المقدمة المستقلة في موضوعها عن الألفية رغم أنها جزء منها، تُشكل كتاباً مستقلاً عنها، يختلف عنها كلياً، لأن تناوله لأحكام الولاية جاء عاماً لا يتعلق بشيخه فقط، وإنما بجميع الأولياء، ولذلك أطلقت عليها في عنوان المقال/ المقدمة في الولاية الإلهية تمييزاً لها عن موضوع الألفية المتعلقة بمناقب الشيخ الأمين، لأنه يعتبره ولياً من أولياء الله الصالحين[1].

وإني أوجه عناية الباحثين في مجال التصوف إلى تناول هذه المقدمة أو الألفية بكاملها بالدراسة والشرح، فمن خلالها نحصل على كتاب جديد يضم إلى المكتبة الصوفية الجديرة بالدراسة، ومن خلال تلك الدراسة يمكن معرفة العديد من تراجم العلماء ورجال التصوف الذين ذكرهم الناظم، وخاصة ممن

(1) كان ذلك أثناء نشر المقال أول مرة، ورأيت من الأنسب أن يكون عنوانها الآن مقدمة في أحكام الولي، وهو الأقرب من العنوان السابق.

ليس لهم ترجمة معروفة في السابق، فتضيف إلى تاريخ الأعلام في بلادنا معلومات جديدة، رحم الله الناظم الشيخ زغوان الذي أرّخ لنا فترة هامة من حياة التصوف، وترك لنا كتاباً مفيداً لمعرفة هذا النوع من العلوم التي كانت سائدة في بلادنا، لا زالت تحظى بالدراسة والاهتمام.

* * *

المبحث الخامس

تخميس وتشطير القصيدة العينية للشيخ أحمد بن محمد بن حمادي(*)

ذكرني الصديق العزيز الأستاذ عبد الواحد شعيب بهذه القصيدة الأندلسية الرائعة عندما قرأت مقاله المنشور في العدد 600 من صحيفة الدعوة الإسلامية والذي كان بعنوان: هل كان لليبيا نصيب من إرث الحضارة الأندلسية؟ فهذه القصيدة التي عرفت في سجل التراث الأدبي باسم القصيدة العينية نسبة لرويها حرف العين، هي من أجمل القصائد في الأدب الصوفي، فهي استغاثة وتوسل إلى الله تعالى، صادر عن قلب رجل مؤمن بالله، ضاقت به السبل، وانسدت أمامه الأبواب، وغاب عنه المُعين، فلم يعد له من ملجأ إلا للخالق العظيم الذي يرى ويسمع، ويعلم بحال الخلائق والمقدر للأرزاق والمُعين على المصائب، والمفرج للكروب، لذلك جاءت هذه القصيدة تعبيراً عن صدق التوجه وخلوص النية واللجوء إلى الله تعالى، وهذه سمات المتصوفة وشرطهم الأساسي بعد التوبة في الدخول إلى رحاب التصوف الصادق.

ولهذا تلقفها المتصوفة في جميع أنحاء العالم الإسلامي وأصبحت جزءاً من أورادهم، ونصاً في مناجاتهم وإنشاداتهم، ونقلتها مصادر عديدة قديمة

(*) نشرت في صحيفة الدعوة الإسلامية، العدد 603، الصادر بتاريخ 22/ 7/ 1998ف.

وحديثة، وخاصة التي تترجم لقائلها وهو عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد الخثعمي السهيلي، ولد سنة 508هـ في مدينة مالقة بالأندلس، وتوفي في سنة 581هـ في مدينة مراكش، وبها تمّ دفنه رحمه الله، كان عالماً بالعربية واللغات أديباً عالماً بالتفسير وصناعة الحديث، عارفاً بعلم الكلام والأصول، حافظاً للتاريخ ومشهوراً بالصلاح والورع والعفاف والقناعة بالكفاف، له مؤلفات عديدة في عدة معارف، ولم يكن شاعراً ينظم القصائد الطوال، والقصيدة العينية تعتبر من أشهر أشعاره، وتذكر المصادر التي نقلت هذه القصيدة أقوال بعض الفقهاء والصلحاء حيالها بما يفيد أن الدعاء بها مستجاب بإذن الله مع خالص النية.

لم أطلع من خلال المصادر التي وقفت عليها، كالبداية والنهاية لابن كثير، وطبقات المفسررين للداودي، والدراسة التي قام بها الأستاذ عبد الله محمد على النقراط للإمام السهيلي من خلال تحقيقه لكتابه التعريف والأعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، على من قام بتشطير أو تخميس القصيدة العينية، والتي يبدو أنها كانت متداولة في ليبيا من خلال الزوايا الصوفية، فقد قام الشيخ الجليل العالم الصوفي الفقيه الشيخ أحمد بن محمد بن حمادي، (1864 ـ 1948) بتخميس وتشطير هذه القصيدة المباركة، وأدرجها في كتابه حادي العقول إلى بلوغ المأمول، وهذا الكتاب تحت النشر حالياً[1] والشيخ ابن حمادي له عدة مؤلفات مخطوطة بدأت تأخذ طريقها للنشر وتخميس الشيخ ابن حمادي لهذه القصيدة يدل على تتبع المتصوفة في هذه البلاد للتراث الصوفي الإسلامي، فقائل القصيدة العينية أندلسي عاش في القرن السادس الهجري، والمخمس والمشطر لها عاش في طرابلس بعد ذلك بقرون وكما كان للفن الأندلسي وجود في ليبيا فلا يزال التأثير قائماً إلى حد الآن، ولا غرو أن يقوم الفنان الكبير الشيخ حسن عريبي بتلحين وأداء القصيدة العينية

(1) كان ذلك أثناء نشر المقال، ثم نشر الكتاب بعد ذلك من قبل جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، سنة 1999، وبه تخميس القصيدة العينية وتشطيرها، ص219 ـ 222.

للإمام السهيلي، وقدمها خلال شهر رمضان الكريم الماضي، وكم كنت أتمنى عليه أن يؤديها بتخميس الشيخ ابن حمادي، ولقد طلبت منه ذلك وزودته بالنص، وقد أخبرني بأن صاحب التخميس من شيوخه، فليته فعل!؟ وقد يكون له وجهة نظر علينا احترامها، وفيما يلي تخميس القصيدة العينية للشيخ أحمد بن حمادي رحمه الله، والتشطير فيما بعد(1)، ونشير إلى أن المخمس قدم له بمقدمة نذكرها مع النص:

ولما كان لهذه الاستغاثة مكانة لبركتها، لأنه ما دعا بها أحد في حاجة إلا قضيت ولا مريض إلا شفي بإذن الله تعالى، خصوصاً مع حسن النية، خمستها وأتيت ببيتين في الصلاة والسلام على النبي وآله، لأنه يطلب الإتيان بها قبل الدعاء وبعده، وشطرتها، وأتيت بكلمات قبلها كالتملق، لأن ذلك مطلوب في الدعاء وقبله، راجياً بذلك حصول البركة من ناظمها رضي الله عنه(2)، ونفعنا به آمين، وهذا التخميس، ويليه إن شاء الله التشطير:

يا ربّ صل على النبي وآله والصّحب من لهم المقام الأرفعُ
صلي وسلم يا إلهي على الصفي والآل من لهم الفضائل تجمع

(تخميس الاستغاثة)

حمداً لمن بالعلم فضلاً يرفع ويُنيل بالتقوى مقاماً أرفعُ
ويحب من يأتي لبابه يخضعُ (يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ
(أنت المُعَد لكل ما يتوقع)

(1) لم يسبق نشر التشطير ضمن المقال في صحيفة الدعوة الإسلامية، ورايت إلحاقه في هذا الكتاب زيادة في الفائدة.

(2) هذه القصيدة من نظم الفقيه عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي الأندلسي وتسمى القصيدة العينية، معجم المؤلفين ص147/ 3، والقصيدة منشورة في كتاب منبع السعادات دون ذكر اسم الناظم، ص277، وفي ترجمة ناظمها في طبقات المفسرين للداودي ص274/ 1، وفي البداية والنهاية لابن كثير، ص319/ 2.

كم نعمة أسديتها بأجلها   كم كربة أنعمت ربّ بحلها

ولعجزي لا أقوى لدفع أقلها   (يا من يُرجَّى للشدائد كلها)

(يا من إليه المشتكى والمفزع)

يا رب عجل كل خير ثم مُنْ   فضلاً بغفران وسري فلتصنْ

وارحمني يا رب معيناً لي وكنْ   (يا من خزائن رِزقِه في قول كن)

(امنن فإن الخيرَ عندك أجمع)

مولاي آمالي إليك طويلةٌ   ولك البرايا فقيرةٌ وذليلةٌ

يا من عطاياه علينا جليلةٌ   (ما لي سوى فقري إليك وسيلةٌ)

(فبالافتقار إليك فقري ادفعُ)

إنيْ فقير والعطايا جزيلةٌ   ومواهب الإحسان منك جميلة

قرب الرحيل وما إلى فضيلةٌ   (ما لي سوى قرعي لبابك حيلةٌ)

(فلئن رُدِدتُ فأي باب أقرع)[1]

إن الفقير له الآلام[أ] يجسمه   فرجائي منك الستر لي معْ حسمه

يا من يمن على العُصاة بحلمه   (ومن الذي أدع وأهتف باسمه)

(إن كان فضلك عن فقيرك يُمنعُ)

إني إلهي أروم منك شفائياً   فلقد أتيت[ب] إلى جنابك راجيا

فامنن بمرحمة وكن بها راضياً   (حاشا لجودك أن تُقْنِط عاصيا)

(الفضل أجزل والمواهب أوسعُ)

---

(1) أصل القصيدة: ولئن.

(أ) الأصل: الخبال.

(ب) وضع المؤلف كلمة «إني» فوق لقد.

يـا ربّ مـقـاصـدي لـك دائـمـاً إنـي بـأوزاري لـنـفـسـي ظـالـمـا
أنت الرجاء فكن بفضلك راحماً بـالـذل قـد وافَـيـتُ بـابـك عـالـمـا

(إن التذلل عند بابك ينفع)[1]

فـاسـمـح بـمـغـفـرة إلـهـي تـفـضـلاً وامـنـن بـجـنـات الـعـلـي مُـتـفـضِّـلا
فـلـقـد رجـوتـك خـاضـعـاً ومؤمـلاً وجعلت معتمدي عليك توكلا

(وبسطت كفي سائلاً أتضرع)

كـم مـسـرف مـن ذنـبـه أنـجـدتـهُ كـم مـبـتـلـي مـن دائـه أنـقـذتـهُ
كـم سـاقـط خـلـصـتـه ومـنـحـتـهُ فـبـحـق مـن أحـبـبـتـه وبـعـثـتـهُ

وأجبت دعوة من به يتشفع

يسر لنا لبلوغ خيرك منهجاً وأدِمْ جـمـيـلاً ثـم هـمـي فـرِّجـا
ولـتـكـفـنـي مـن كـل هـم أحـرجـا واجعل لنا من كل ضيق مخرجا

والطف بنا يا من إليه المرجعُ

يا من يجود على المسي بنواله اغفر لذي التخميس سوء فعالِهِ
واستره في الدنيا ويوم مآلِهِ ثـم الـصـلاة عـلـى الـنـبـي وآلِـهِ

خير الأنام ومن به يتشفّع[2]

---

(1) هذا البيت والبيتين اللذين يليانه لم أجدهما في أصل القصيدة، ويحتمل إضافتهم من قبل المؤلف لأنه أشار إلى الإضافة قبل الدعاء وبعده، كما أن التشطير الذي يأتي بعد ذلك اقتصر فيه الناظم على أصل القصيدة حسبما ورد في كتاب منبع السعادات، ص277، وما ذكر في طبقات المفسرين والبداية والنهاية سبعة أبيات فقط.

(2) هذا البيت هو الأخير في أصل القصيدة.

تم التخميس ويليه التشطير

يا من يجيب السائلين وينفع — يا من يحب التائبين ويدفع
يا من يغيث المسرفين تكرماً — يا من يجود على العصاة ويرفع[1]
(يا من يرى ما في الضمير ويسمع) — لدعاء عبد سائل يتضرع
أنت الذي نرجو مواهب جوده — (أنت المُعد لكل ما يتوقع)
(يا من يرجى للشدائد كلها) — يا من له يأتي العزيز ويخضع
يا من لِعزته الملوك ذليلة — (يا من إليه المشتكى والمفزع)
(يا من خزائن رزقه قول كن) — أنعم بما نرجوه منك ونطمع
أنت الكريم المحسن المتفضل — (أمنن فإن الخير عندك أجمع)
(ما لي سوى فقري إليك وسيلة) — ما لي غير كمال جودك مطمع
فبذُلي مع عجزي أجرني كرامة — (فبالافتقار إليك فقري أدفع)
(ما ليس سوى قرعي لبابك حيلة) — ما لي سوى ذلي ببابك مفزع
حتى أفوز بما لديك وأغنم — (فلئن رُدِدتُ فأي باب أقرع)
(ومن الذي أدع وأهتف باسمه) — ويجود لي بالفضل ما به أرفع
وأنال غاية مطلبي من حلمه — (إن كان فضلك عن فقيرك يُمنعُ)
(حاشا لجودك[2] أن تُقْنِط عاصياً) — وترد من يأتي لفضلك يضرع[أ]
وتؤيس الراجين منك مراحماً — (الفضل أجزل والمواهب أوسعُ)
ثم الصلاة على النبي وآلِهِ — والصحب من لهم المقام[ب] الأرفع

---

(1) هذان البيتان من نظم المؤلف، وقد أشار إلى أنه قدم للتخميس والتشطير.
(2) الأصل: لمجدك وهو خطأ من الناسخ.
(أ) الأصل: يخشع.
(ب) الأصل: الكمال.

وكـذا الـسـلام عـلـى الـشـفـيـع مـحـمـد (خيـر الأنـام ومـن بـه يـتـشـفـع)[1]

* * *

(1) التشطير مطابق لأصل القصيدة المكونة من ثمانية أبيات حسبما وردت في كتاب منبع السعادات، ص277. ويلاحظ أن تشطير البيت الرابع مكسور الوزن.

المبحث السادس

التلقين ودوره في التربية الصوفية(*)

تتميز بلادنا ـ ليبيا ـ بوجود تراث صوفي كبير، ومنذ زمن ليس بالقليل نشأت فيها عدة طرق صوفية جديدة، علاوة على انتقال الطرق الصوفية القديمة إليها، ويعود ذلك لأسباب عديدة، منها شدة تمسك سكان هذه البلاد بالدين الإسلامي وقوة العقيدة الإسلامية، وتميز أهلها بالأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، وعدم ظهور الأفكار المناوئة للإسلام، أو الدخيلة على الفكر الإسلامي، كل ذلك كان سبباً في استقطاب العديد من أهل التصوف الباحثين عن ملاذ يستطيعون فيه الانقطاع لعبادة الله، والتقرب إليه في أجواء بعيدة عن الحواضر التي انتشر فيها الفجور واللهو، وكل ما يَنْفُر منه المسلم المتمسك بدينه وخلقه القويم، فكانت ملجأ العديد من الزهاد والعبّاد الذين تركوا بلدانهم شرقاً وغرباً، واستوطنوها إذ وجدوا فيها مرتعاً خصباً للحياة الصوفية الخالية من أردان الدنيا وآثامها، كما وجدوا فيها بيئة صالحة لنشر طرقهم الصوفية[1].

(*) نشر المقال في مجلة الرفقة، العدد 5، الصادر بتاريخ محرم 1771، و.ر. الموافق الربيع 2003 إفرنجي، تصدر عن شعبة التثقيف بملتقى رفاق الأخ القائد، طرابلس.

(1) على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ أحمد زروق، والشيخ عبد الواحد الدوكالي، والشيخ سعيد الهبري، والشيخ محمد الإمام، والشيخ محمد ظافر المدني، يراجع المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب للأستاذ أحمد بك النائب الأنصاري، ص181 ـ 254.

وكان من نتيجة ذلك وجود كمّ هائل من التراث الصوفي في ليبيا، فهذا التراث يتعلق بعدة جوانب مهمة، منها: تاريخ الطرق الصوفية من حيث النشأة والتكوين، ودورها في الجانب الاجتماعي والثقافي، ومساهمتها في الفنون والآداب والمباني الأثرية، والحصيلة الكثيرة من التراث المكتوب المطبوع منه والمخطوط، كل ذلك يحتاج إلى دراسات علمية جادة، ناهيك عن الجمع والتحقيق والنشر، ذلك ما ينبغي معه توجيه الباحثين إلى هذه الحصيلة الكبيرة من القصائد والمدائح والأذكار والحكم والوصايا وغيرها، لاستخلاص مميزات هذا الأدب الصوفي في كل المجالات، وقد ألمحت في دراسة سابقة إلى ارتباط هذا التراث الصوفي بعدة أمور على النحو التالي، فهو يتعلق:

أولاً: بالفكر الإسلامي وعلم الكلام والإخلاص والعبادة والزهد.

ثانياً: يتعلق بمجال التربية وعلم النفس والسلوك والتعليم والحكم والمواعظ والإنشادات.

ثالثاً: القيمة الأدبية لتلك النصوص النثرية والشعرية، وما فيها من صور بلاغية وقيمة بيانية وأخيلة وتعبيرات جميلة[1].

وبصورة عامة يمكن أن يجد الباحثون في كل التخصصات العلمية مادة صالحة لدراساتهم وبحوثهم «ومن هؤلاء المربون وعلماء النفس، وذلك لكون الحركة الصوفية حركة تربوية نفسية تهتم بصقل الروح وتهذيب النفس وتقويم السلوك»[2].

ضرورة الأخذ على شيخ متصوف

يرى علماء التصوف ضرورة أخذ الطريقة الصوفية على شيخ يقوم على تعليم المريد وتربيته وترقيته، وينجذب المريد إلى هذا الشيخ بعدة وسائل، منها

(1) مقدمة كتاب حادي العقول إلى بلوغ المأمول، تأليف الشيخ أحمد بن حمادي، تقديم وتحقيق د. جمعة الزريقي، ص58.

(2) دور التراث في تأكدي الأصالة، الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني، ص109، طبع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 2000.

رغبته في أخذ العلم عليه أو الاقتداء بسلوكه أو للتقرب منه والتبرك به، فإذا كانت هذه وسائل الجذب بصورة عامة فإن الدخول في الطريقة الصوفية ينبغي أن يتم على يد شيخ متخصص في هذا المجال، وأعني بالتخصص هنا هو العلم والعمل، كما يقول الشيخ أحمد زروق في قواعده، ولهذا فهو يرى لزوم المشيخة وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[1] واقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم في أخذهم عن رسول الله ﷺ[2].

والمقصود بالشيخ هنا هو شيخ التربية الذي يتولى رعاية المريد في دينه ودنياه، وهو يختلف عن شيخ التعليم، فشيخ التعليم يمكن الاستعاضة عنه ـ كما يرى الشيخ زروق ـ بالكتب، ولكن ذلك لن يكون إلا للحاذق الفهم غير أن درجة تحصيله من العلم لن تكون بذات المستوى المتحصل من شيخ التعليم، أما شيخ الترقية فهو الذي يرقى به المريد كلما التقاه أو سمع عنه، حتى لا يتثاقل عن واجبه أو يكل عزمه، أو تنفد قوته عن السير في الطريق، فيكون الاقتداء بالشيخ آنذاك وسيلة في زيادة الهمة وقوة العزيمة[3].

إلا أن الشيخ زروق رحمه الله بعد أن بين لنا أنواع الشيوخ وحاجة المريد إلى شيخ ناصح أمين، صاحب عمل وعلم صحيح، «يقيمك مقام نفسه، ويعمل معك ما يجده في رمسه، فلا يألوك نصحاً إلا بذله، ولا توجهاً من التكميل إلا استعمله، يقول «هو الآن معدوم في المشرق والمغرب، وإن وجد فأغرب من عنقاء مغرب، لأنك لا تجد إلا صاحب حال وهمة أو صاحب علم وعمل بلا همة[4]، ويبدو أن هذا الرأي قد نقله عن شيخه الحضرمي، حيث أشار إلى ذلك

(1) سورة لقمان، الآية: 15.

(2) قواعد التصوف، أبو العباس أحمد زروق رضي الله عنه، القاعدة 65، ص49، صححه الأستاذ محمد زهري النجار، دار الجيل بيروت، 1412 ـ 1992.

(3) عدة المريد الصادق، للشيخ أحمد زروق رضي الله عنه، تحقيق الأستاذ الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني، ط1، مكتبة طرابلس العلمية.

(4) ذكر ذلك في كتاب الإغاثة، نقلاً عن تكاب دور التراث، المصدر السابق، ص169، ونفس الرأي ذكره بصيغة أخرى في كتابه عدة المريد الصادق، ص123.

في شرح المباحث الأصلية لابن البنا، إذ يقول بارتفاع التربية على يد الشيوخ لانعدامهم في عصره، وبالتالي لم يبق أمام المسلم في التقرب إلى الله سوى الكتاب والسنة، ولكن هذا الرأي لم يجد صداه لدى الشيخ أحمد بن عجيبة وهو ما جعله لا يسلم بانقطاع شيخ التربية أبداً، حيث تبقى له تربية الهمّة والحال والمقال والاصطلاح، وإذا كان الحضرمي تكلم على ما ظهر في زمانه فلا يلزم عمومه فيما بعده[1]، وذلك يعني قدرة الشيخ المربي على استعمال الوسائل المختلفة التي تتناسب مع هدف المريد والمربي معاً في تحقيق سلوك الطريق القويم، ورغبة الشيخ في هدايته إليه.

حرية الاختيار للشيخ والمريد

لم يتعرض علماء التصوف ورجاله إلى مسألة اختيار الشيخ من قبل المريد أو اختيار المريد من قبل الشيخ، فهذه المسألة لم تطرح للنقاش لأن العلاقة الصوفية بين الشيخ والمريد إنما تنشأ في مناخ حرّ متفتح لا إكراه فيه، وغالباً ما تبدأ باعجاب المريد بالشيخ ورغبته في الأخذ عنه سواء في العلوم الأخرى أو مجال التصوف ـ كما سبق القول ـ في شيخ التعليم وشيخ التربية، إلا أن شيخ التربية هو الذي يكون قادراً على جذب المريد وجعله يتقرب رويداً رويداً منه إذا لمس فيه الاستعداد والرغبة في الوصول، ولن يتأتى ذلك إلا كان المريد في القسم الأول، وهو الذي وصفه الشيخ الأمين العالم رحمه الله (ت 1992م) بالشريعة، عندما قال: «الأقسام ثلاثة: وهي: الشريعة والطريقة والحقيقة»[2]، والمعنى هنا أن يكون المريد ملتزماً جانب الشريعة بالقيام بفروضها واجتناب نواهيها، ويرغب في الدخول إلى الطريقة حتى يصل إلى الحقيقة، ولن يتأتى له ذلك إلا بالانتماء إلى الطريقة، وهي تلتزم أفعال المجاهدة والمكابدة، ومن هنا

---

(1) شرح المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي، تأليف الشيخ العارف بالله أحمد بن عجيبة، ص127.

(2) كتاب منح ربّ العالمين في مناقب شيخنا الأمين، للشيخ أحمد بن حمادي، ص29، مخطوط.

فإن العلاقة بين الشيخ والمريد إذا بدأت لن تنفصم عراها إلا بأمر خارج عن الإرادة، لأن بدايتها كانت من قناعة واختيار حرّ لا إكراه فيه.

بداية العلاقة بين الشيخ والمريد

يرى بعض الباحثين أن العلاقة بين الشيخ والمريد تبدأ بالتلقين أو العهد أو تلقين الورد، حيث يعتبر ذلك هو تأسيس العلاقة الحقيقية، وهي أول الخطوات التي يقوم بها الشيخ ليسلك مريده مختلف منعرجات الطريق حتى يوصله إلى بغيته من التجرد والأدب والمعرفة[1]، إلا أن هذه المرحلة تحتاج إلى مقدمات قبل الوصول إليها، وقد أشرت إلى طرف منها، وهي الرغبة والانجذاب بين الطرفين، ثم شعور الشيخ بصلاحية المريد واستعداده للدخول في الطريقة وأيضاً قيامه بالواجبات الدينية المطلوبة من أداء الفرائض والابتعاد عن النواهي على أن تكون البداية بالتوبة الخالصة، وإذا كان المريد غير ذلك فالدعوة إلى هدايته وتوبته ونهيه عن المنكر إنما هي واجب على جميع المسلمين يقع عليهم القيام به، نعم قد يتوب الشخص على يد الشيخ، ثم ينجذب إليه ويسلك معه الطريق، ولكنه في هذه الحالة يعتبر من مريدي التوبة، ويكون الفضل والأجر لمن هداه الله على يديه سواء كان شيخاً مربياً أم أحد أفراد المسلمين، قال رسول الله ﷺ وهو يخاطب سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» رواه الإمامان البخاري ومسلم[2].

---

(1) التصوف كوعي وممارسة، الدكتور عبد المجيد الصغير، ص131، دار الثقافة الدار البيضاء، 1999ف.

(2) صحيح البخاري، مناقب سيدنا علي، ص207/ 4 وصحيح مسلم مناقب سيدنا علي، حديث رقم 34، ص1872/ 4.

مرحلة الاستعداد للمريد

ذلك فيما يتعلق ببدء العلاقة بين الشيخ والمريد، وبداية الاتصال هذه تتطلب منهما الاستعداد للدخول في مخاطر تجربة علمية وعملية، فهي علمية لأن المربي يسلك مع مريده طريقة علمية منهجية تجعله سالكاً في طريق القوم بغية الوصول إلى الحقيقة، وهي أيضاً عملية لأنها تتطلب القيام بأعمال وأفعال من الطرفين، ومع ذلك فإن البداية في الغالب تكون من المريد، فهو الذي يبدي الاستعداد لتمكين الشيخ المربي من القيام بدوره، ولن يتأتى ذلك إلا بالتسليم له في كل ما يقول وما يفعل، يقول الشيخ عبد السلام الأسمر رضي الله عنه في الوصية الكبرى: إن المريد مع شيخه على صورة الميت لا حراك فيه ولا كلام ولا يتحدث بين يديه إلا بإذنه ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه... إلى أن يقول فإن الشيخ هو والد السر فيجب على الولد عدم العقوق بوالديه[1].

فإذا طرحنا ما ذكره الشيخ عبد السلام الأسمر للنقاش، فهل في ذلك طمس لشخصية المريد أو القضاء عليها بحيث لم يعد لوجوده وجود مع الشيخ أو أن ذلك من مستلزمات التربية الصوفية، وتكون لفترة مؤقتة حتى يتدرج السالك من مرحلة إلى أخرى؟

يبدو أن الإجابة على هذا السؤال، هو أن ذلك من متطلبات التربية الصوفية، فإذا أخذ المريد في الجدال والنقاش منذ البداية فلا شك أن ذلك سيجعل العملية التربوية متعثرة، وقد يصل المريد إلى مرحلة الشك أو التشكك فلا تؤتي ثمارها، والذي يجعل المريد يستسلم للشيخ هو الثقة الحاصلة فيه منذ البداية، فالشيخ قدوة في عمله ومسلكه، والمريد على طريقه المستقيم وبحصول الانجذاب وتبادل الثقة يتمّ الشروع في تلقي التدريب التربوي من أجل الولوج في سلك التصوف.

---

(1) الوصية الكبرى للشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري، ص49، 1958، مصر.

إلا أن ما ذكره الشيخ عبد السلام الأسمر من شرط الاستسلام للشيخ من قبل المريد هو بداية تلقي التربية الصوفية، وبعد ذلك يحتاج السالك إلى عدة أمور حددها الشيخ أحمد بن عجيبة في ثمانية هي: القصد، وصدق صريح وآداب مرضية، وأحوال زكية، وحفظ الحرمة، وحسن الخدمة، ورفع الهمة ونفوذ العزيمة، وأضاف إليها آداب التصوف وحددها في خمسة أمور هي: خلع العذار، والذلّ والانكسار، والبذل والإيثار، وصحبة العارفين الأبرار، وبذل الجهود في الطاعة والإنكار، وقد شرحها جميعاً في كتابه شرح المباحث الأصلية لابن البنا[1].

حقيقة التلقين

لا أعتقد أن التلقين يقصد به المعنى اللغوي للكلمة، وهو أن يقوم إنسان بذكر كلمات بصوت مسموع يقوم غيره بترديدها، فهذا تفسير لغوي قد يدخل ضمن طقوسه، ولكنه لا يعبر عن معناه، يقول الشيخ ابن عجيبة في إيقاظ الهمم: وأعلم أن هذا العلم الذي ذكرنا ليس هو اللقلقة باللسان، وإنما هو أذواق ووجدان ولا يؤخذ من الأوراق وإنما من أهل الأذواق، وليس ينال بالقيل والقال وإنما يؤخذ من خدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والله ما أفلح مَنْ أفلح إلا بصحبة من أفلح[2].

ويتضح من ذلك أن التلقين ليس ترديد بعض الأقوال والحكم وإنما يشتمل على عدة عمليات يقوم بها الشيخ تجاه المريد حتى ينخرط في سلكهم وقبل أن نعرض لها تفصيلاً نشير إلى أن التلقين لا يعتبر الخطوة الأولى في طريق التصوف فمن خلال تجربة الشيخ أحمد بن حمادي مع شيخه الأمين العالم رحمهما الله قطع التلميذ مرحلة مهمة قبل أن يقوم شيخه بتلقينه منذ تعارفه الأول

(1) شرح المباحث الأصلية للشيخ أحمد بن عجيبة، ص13 ـ 14/ 1.
(2) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، للشيخ أحمد بن عجيبة، ص8.

وانجذابه إليه سنة 1316هـ إلى سنة 1322هـ، وهي السنة التي حصل فيها التلقين[1] بينما لم يحك لنا الشيخ عبد السلام الأسمر عن تجربته في دخول التصوف ولكنه قال: إنه في بداية أمره كان فقيهاً لا يشتهي التصوف ولا محبة أهله إلى أن سمع أشعار المتصوفة وقصائدهم فهام بها وأدخله الجذب إلى الروضة المعروفة بأولاد سليمان[2]، فهل هذه هي بداياته يا ترى؟

مرحلة التدريب

لعل أول خطواته بعد حصول الانجذاب نحو الشيخ، هي اتباع المريد لشروط الدخول في سلك الطريقة، وأولها التوبة والالتزام بالواجبات الدينية، ثم يقوم الشيخ المربي بإرشاد المريد إلى ما ينفعه من أمور، كإرشاده إلى معرفة أحكام العبادات وقواعد الأخلاق، وتصحيح العقيدة إذا لاحظ وجود شوائب لدى المريد حتى يصفو اعتقاده في توحيد الخالق، وربما يضيف إلى ذلك بعض قواعد المعاملات، وبصورة عامة تزويده بالقواعد الإرشادية الضرورية لبداية الطريق، وبطبيعة الحال فإن ذلك يتطلب من الشيخ المربي أن يكون عالماً بتلك العلوم بالقدر الذي يحتاج إليه المريد في مرحلة التلمذة، وهو القدر الذي لا بد منه، ولا يشترط في الشيخ المربي أن يكون عالماً في الفقه والأصول ومنطق ولغة وعلوم القرآن والحديث وعلم الكلام أو متخصصاً ومتعمّقاً فيها، بل بقدر الحاجة[3].

مرحلة أخذ العهد عن الشيخ

تكون الخطوة التالية تكليف المريد ببعض المجاهدات، منها: الصيام وقراءة القرآن والإكثار من النوافل، تجنب رفاق السوء، والاقتراب من العارفين

---

(1) منح رب العالمين في مناقب شيخنا الأمين، ص21 مخطوط.

(2) الوصية الكبرى، المصدر السابق، ص102.

(3) التصوف كوعي وممارسة، الدكتور عبد المجيد الصغير، ص133.

إصلاح الجوارح، والاستقامة وإصلاح الباطن، مطالعة سير الصالحين، تلاوة الأذكار، أو العزلة، والصمت والتفكر والتأمل، ثم تأتي الخطوة الأخيرة في التلقين، وهي أخذ العهد على الشيخ المربي، وبهذه الخطوة ينخرط المريد في الطريقة التي ارتضاها لنفسه باختياره، وقد تتم هذه الطريقة بعفوية في أحد المجالس الصوفية، ولكن العادة جرت أن تكون لها طقوس خاصة، لأنها آخر مرحلة في التلقين.

ويحكي لنا الشيخ أحمد بن حمادي عن تجربته مع شيخه في أخذ العهد بعد أن اجتاز المراحل الأولى، فيقول «ولما آن الوقت دعاني وأدخلني منزله السامي وبالغ في إكرامي وإنعامي جعله الله لي موائد في الجنة، ثم أمرني بالذهاب إلى جامع سيدي العريفي، فتوضأت وصليت ركعتين لله تعالى، ثم جاء وجلس مستقبل القبلة الشريفة وأتيت وجلست أمامه، ولقنني بحمد الله وأوصاني بوصايا وبايعني، وأخذ عليّ العهد مع توفيق الله وحفظه في عدم المخالفة ضحى سنة 1322هـ»[1].

وبانتهاء هذه المرحلة بخطواتها ينخرط المريد في سلك القوم، وأساسه العهد الذي التزم به من خلال التلقين، وبالتالي ينتقل من القسم الأول: **الشريعة** ليدخل في القسم الثاني: **الطريقة**، وهو القسم الذي عبر عنه الشيخ الأمين العالم بالأفعال، أي المجاهدة والمكابدة، فيكون التلقين بمثابة الانطلاقة إليها فيبدأ المريد في سلوك الطريق الذي يتطلب جهداً مضنياً حتى يصل إلى القسم الأخير، وهو **الحقيقة**، وهذان القسمان يحتاجان إلى المزيد من الشرح، ولا مجال لهما في هذه الورقة المخصصة للمرحلة الأولى، وهي التلقين ودوره التربوي في صقل المريد لانخراط في الطريقة الصوفية، ومن خلالها عرفنا أن التلقين لا بد وأن يتم على مراحل لضرورة مراعاة قاعدة التطور والتدرج فيه[2].

---

(1) منح ربّ العالمين، المصدر السابق، ص21.

(2) التصوف كوعي وممارسة، المصدر السابق، ص133.

وقبل أن نصل إلى ختام هذا البحث المختصر، هناك ملاحظة يقتضي المقام الإشارة إليها وهي أن بعض المتصوفة يقول: إن من لا شيخ له فالشيطان شيخه فهذه المقولة إن قصد بها الأشخاص الذين يدعون التصوف أو يعلنون عن أنفسهم بأنهم من المتصوفة دون أخذ الطريقة عن شيخ متمكن، فقد تصدق عليهم المقولة أما إن قصد بها عامة المسلمين فلا اعتقد صحة هذا الحكم على إطلاقه فلا توجد واسطة بين الخالق سبحانه وتعالى والمخلوق، وبالتالي قد يكتفي المسلم بصحة العقيدة وأداء الفروض والواجبات والابتعاد عن النواهي وربما يكون أقرب إلى الله من غيره.

❖ الخاتمة:

أختم هذه الورقة بالقول: إن الطريقة التي يتبعها المتصوفة في تربية المريد تعتبر من الطرق التربوية العلمية، والتي يمكن الاقتداء بها في تربية النشء لأنها تعتمد على عدة قواعد أساسية لا ينبغي ترك دراستها، ولعل نجاح المتصوفة في تجربتهم التربوية إنما يعود إلى مراعاة تلك القواعد، ومن أهمها:

1 ـ سموّ الهدف الذي يسعى إليه التصوف، وهو تنقية المسلم من الأدران التي تلحق بعقيدته أو عباداته، والأخذ بيده لسلوك الطريق القويم والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، مع التقيد بالأخلاق الرفيعة والأعمال الحميدة.

2 ـ قيام العلاقة بين الشيخ المربي والمريد على المحبة والتودّد وحرية الاختيار، فلا إكراه في الدخول إلى طريقة معينة، فالطرق الصوفية متعددة وكلها تسير إلى اتجاه واحد وإن اختلفت الوسائل، وليس على المسلم حرج في اعتناق أحدها أو الاكتفاء بالتكاليف الشرعية.

3 ـ قيام التربية على التدرج فلا يصل المريد إلى مرحلة التلقين وأخذ العهد حتى يقطع شوطاً تمهيدياً يتمكن معه من إظهار الاستعداد اللازم لذلك ولن يتأتى ذلك إلا بعد مرور فترة يتمكن خلالها من ترويض نفسه

وتمهيدها لخوض التجربة الصوفية، وهذه الفترة ليست محددة بزمن وفي جميع الأحوال يجب أن يقطع التلقين مراحله الثلاث: الاستعداد والتدريب والمجاهدة، وأخذ العهد.

4 ـ يشترط فيمن يقوم بدور الشيخ المربي عدة شروط من أهمها العلم والعمل، والعلم يكون في الأمور الضرورية خاصة في مجال العقيدة فهي الخطوة الأولى في تنقية الشوائب التي تلحق بفكر المريد وتبعده عن الإشراك بالله، ثم أحكام العبادات والمعاملات بالقدر الذي يحتاجه المريد في كل مرحلة، كما يشترط في الشيخ المربي القدرة على الغوص في نفسية المريد وإدراك خواصها وعيوبها واستعمال الوسيلة لإصلاحها.

5 ـ سلامة النية والطوية، إذ ليس من هدف التربية الروحية في مجال التصوف الحصول على نفع مادي دنيوي، وهذا ما يجعلها تقوم دائماً على أسس صحيحة، فلو كانت غير ذلك لدخلها الغش والخداع وغيره من الوسائل غير المشروعة، وإنما هي تسليم وانقياد لله سبحانه وتعالى، وطريقة للقرب منه والوصول إلى رضاه وثوابه، ومن هنا ابتعدت عن كل الشوائب التي لا تليق بها.

6 ـ إن التلقين بمراحله الثلاث، هو الخطوة الأولى في الطريق نحو التصوف والدخول في مسيرته وفقاً للمدرسة الصوفية التي يختارها المريد، ومن ثم يتدرج فيها إلى أن يصل إلى غيرها، وكل ذلك يتم بتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

المبحث السابع

حوار مع الشيخ العارف النيسابوري(*)

تتميز صحيفة الدعوة الإسلامية بعدة أشياء تجعلها من مصاف الصحف التي تخدم قضايا الإسلام والمسلمين في كل مكان، وذلك من خلال سرد أخبارهم وأحوالهم ونشاطاتهم في كل المعمورة، إضافة إلى نشر المقالات التي تهدف إلى خدمة الفكر الإسلامي وتطوره وتخليصه من الشوائب والآراء الفاسدة التي علقت ببعض الأفكار والتفسيرات الغريبة التي ظهرت مع مرور الزمن قديماً وحديثاً، وهذه الأفكار لا تتفق مع روح الإسلام ومبادئه السامية لذلك حرص العلماء المسلمون على التصدي لها وبيان مجافاتها للدين الإسلامي، ورغم أن ظهور تلك الآراء والمعتقدات قد أدى خدمة جليلة للفكر الإسلامي عندما قام العلماء والفقهاء بدراستها والردّ عليها، فكان وجود هذا الكمّ الهائل من المؤلفات في التراث الإسلامي، ومع ذلك فلا نأمن ظهور أفكار جديدة وآراء

(*) نشر هذا المقال في صحيفة الدعوة الإسلامية التي تصدر عن جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس العدد 636، المؤرخ في 3/ 3/ 1999م، وهو محاورة لمقال بعنوان من حكايات الشيخ العارف النيسابوري التي يكتبها الأستاذ الجليل الصديق بشير نصر، وهي سلسلة من مقامات ومقالات طريفة رفيعة المستوى وقد نشرت الآن في كتاب بعنوان: حكايات العارف النيسابوري، وعبد الله المحجوب، إصدار جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى، ناصر 2002م.

فاسدة تحاول النيل من الإسلام والمسلمين، وتهدف إلى تفريقهم وهوان أمرهم ونشر الفتن بينهم فلا يتحدون كما أمرهم الله بذلك.

ومن المقالات الكثيرة والمهمة في صحيفة الدعوة الإسلامية حكايات العارف النيسابوري التي يرويها الأستاذ الفاضل الصديق بشير نصر، فهذه المقالات تهدف إلى خدمة الفكر الإسلامي والعقيدة الإسلامية بتصحيح بعض المفاهيم السابقة التي وردت في بعض الكتب القديمة والحديثة على حد سواء علاوة على كونها مقالات أدبية حسنة الصياغة والأسلوب، وقد تطرقت إلى جوانب عديدة من التراث الإسلامي الزاخر، منها ما يتعلق بعلوم الحديث من جرح وتعديل ومتن وسند، ومنها في مسائل من الفقه، ومنها أبيات من الشعر العربي الخالد، وأقوال المتصوفة وبعض أحوالهم، وجميع هذه الحكايات إنما تهدف إلى تنقية الفكر الإسلامي من الشوائب التي لحقت بالعقول من خلال بيان الصحيح من الفاسد، وتحري الصدق من الكذب، وبيان الحقيقة من الخيال وذلك ما تحتاجه الأجيال المعاصرة خاصة من الشباب الذين تسربت إلى عقولهم بعض المعتقدات الخاطئة، حيث نرى بعضاً منهم يتمسك بأقوال وطقوس يعتبرها من الدين الإسلامي، وهي ليست من روح الإسلام ولا من مقاصد الشريعة.

وإذ نفتح حواراً مع الشيخ العارف النيسابوري، فإني لا أقصد من ورائه سوى الوصول إلى حقائق الأمور من شيخ عارف بالله، رأيت في حكاياته علماً قويماً وأفقاً واسعاً وذخيرة جيدة من المعلومات ناهيك عن المصادر والمراجع التي يشير إليها، فهي تدل على سعة اطلاعه وطول باعه في هذا المقام، والذي دعاني إلى هذا الحوار ما جاء في إحدى حكاياته، وهي منشورة في العدد 632 من صحيفة الدعوة الإسلامية، والمتعلقة بالكشف عن بعض الخرافات، وقد جاء فيه على لسان الشيخ العارف النيسابوري ما نصه: «اعلم يا بني أن فكرة القطب، وهي فكرة فاسدة لا ريب، روج لها المتصوفة تحت أسماء مختلفة

كالإنسان الكامل وخاتم الولاية، وقد خلع على المسميات أوصاف لا يتصف بها إلا الله».

استوقفني هذا النص رغم التسليم بما جاء بعده من نقد لأقوال وردت على لسان الشيخ ابن عربي في كتابه «منزل القطب» والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام، هو: هل فكرة الإنسان الكامل فاسدة من أصلها أو أن الفساد تطرق إليها من التفسيرات التي وردت بشأنها، والصفات التي أطلقت عليها!؟ فإذا كانت الفكرة من أساسها غير صحيحة، فذلك أمر يحتاج إلى تدليل، أما إذا كانت صحيحة النشأة ولها أساس متين غير أن التحريف قد تطرق إلى تأويلها وتفسيرها وإضفاء الصفات غير الممكنة عليها، فذلك أمر قد يقع التسليم به.

ونظرية الإنسان الكامل التي ظهرت من خلال الفكر الصوفي تطرقتُ إليها في مقدمة تحقيق كتاب **حادي العقول إلى بلوغ المأمول**، الذي ألفه أحد المتصوفة في ليبيا، وهو الشيخ أحمد بن حمادي رحمه الله (1864 ـ 1948) وفيها ألمحت إلى سبب ظهور هذه النظرية، وهو ضرورة أخذ مبادئ التصوف عن شيخ، لأن هدف المتصوفة هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، والوصول إليه طمعاً في رضاه وغفرانه، وشوقاً إلى لقاءه، وسلكوا في ذلك طريق المجاهدة بالقلب الوجدان والتأمل، إلى جانب العبادة والإخلاص والزهد والبعد عن الدنيا والانفراد عن الخلائق، لذلك تطلعوا إلى الإنسان الكامل الذي وصل إلى الدرجة العالية في التقرب من الله سبحانه وتعالى، وأصبح الإنسان الكامل هو هدف الصوفي إذا أدركته العناية الإلهية وتدرج في الطريقة حتى يصل إلى نور الحقّ، وليس ذلك يعني الوصول إلى رتبة الرسل، ولكنه يسعى إلى التقرب من الله بصفات الكمال، ولهذا نجد المتصوف يبحث عمن يقوده إلى ذلك السبيل، وأصبح لدى المتصوفة ما يعرف بشيخ التربية أو شيخ التعليم وجميع رجال التصوف يضعون هذا الشرط، وهو ضرورة التلقي عن شيخ حتى يسلك المريد في الطريق.

ويحدد الشيخ أحمد زروق رحمه الله في كتابه عدة المريد الصادق، أن الشيخ المعتبر عند القوم جملة وتفصيلاً ثلاثة: شيخ التعليم، وشيخ التربية وشيخ ترقية، ولا يزال هذا الشرط قائماً عند أهل التصوف حتى الوقت الحاضر جاء في كتاب الحجة المؤتاة للشيخ أحمد القطعاني: أجمع أهل التصوف على وجوب أخذ التصوف عن شيخ عارف بالله، بصير بعيوب النفس، مطلع على دقائق أمراضها، عالم بالعقائد الإسلامية، وعلم العبادات والمعاملات، قد أخذ التصوف بدوره عن شيخ عارف مرب عرف الطريق وخبر مأمنها ومهالكها، وفي ذلك التزام بقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

• وفكرة الإنسان الكامل التي بحث فيها الفكر الصوفي، تعتبر من أعلى مقامات التمكين التي يمكن أن يصل إليها السالك إذا داوم على سلوكه فأدركته العناية الإلهية، ووصل إلى الغاية، ومن هنا نشأت الرتب الصوفية كالقطب والأوتاد والإبدال إلى غير ذلك، ونظرية الإنسان الكامل نجدها عند ابن عربي والسهروردي وابن سبعين، وقد وضع فيها المتصوف عبد الكريم الجيلي كتاباً تحت اسم «**الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**» وهو من أشهر كتبه[3].

وقد وجدت في نظرية الإنسان الكامل سنداً قوياً في الرد على بعض المستشرقين مثل آدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية، حيث يقول: إن المذهب الصوفي أنشأ اعتقاداً كانت له قوة جاذبة كبيرة جداً من الناحية الدينية

(1) سورة لقمان، الآية: 15.

(2) سورة الكهف، الآية: 28.

(3) الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، د. يوسف زيدان.

لأنه كان يشبع حاجة للتقديس موجودة قبل عهد الإسلام، فقد رفع هذا الاعتقاد محمداً ﷺ إلى درجة فوق درجة الإنسان حتى أوشك أن يرفعه إلى درجة الألوهية خلافاً لما كان عليه السلف الصالح[1].

وهو غمز واضح في تقريب الإسلام إلى اللاهوت المسيحي، وإشارة إلى ما يطلق عليه في علم التصوف بالنور المحمدي، أو الحقيقة المحمدية، والتي تعلي من مقدار النبي عليه الصلاة والسلام وترفع من شأنه وقدره، وتشيد بمكانته السامية العالية على جميع البشر، لذلك وجد المتصوفة في شخصية رسول الله ﷺ الإنسان الكامل الذي حاز على تلك المكانة التي يبحثون عنها، فهم يمجدونه ويقدسونه لمكانته المقدسة من الله تعالى، الذي مدحه في القرآن الكريم وصلى عليه مع ملائكته وأمرنا بالصلاة عليه[2].

ولهذا قام المتصوفة على اختلاف مشاربهم بالتعبير عن حبهم لرسول الله ﷺ ومدحه ووصفه، وتناول سيرته في أكثر من مؤلف، ولا يعد ذلك تجاوزاً من حبّ الله إلى حبّ إنسان، بل إن ذلك من صميم الحبّ الإلهي، ومع التسليم بأنه مخلوق، وأن الله تعالى ليس كمثله شيء، وذلك ما تؤكده حقيقة التوحيد التي هي رأس العبادة.

ومن ذلك يتضح أن فكرة الإنسان الكامل في أساسها هي فكرة سليمة من حيث نشأتها، فهي تحثّ المريد على أخذ التصوف عن طريق شيخ يجب أن تتوفر فيه صفات معينة تجعله أقرب للكمال، وإذا لم يعتقد المريد ذلك في شيخه فلن تكون التربية والتدرج في الطريقة مجدية في تعليمه، فلو شك المريد في نقصان شيخه لما آمن بما يقول، ولما نقل عنه أو تتلمذ

(1) الحضارة الإسلامية، آدم ميتز، ص56/ 2.
(2) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

عليه، لذلك كان اعتقاد المتصوفة في شيوخهم اعتقاداً راسخاً لا يتزعزع فلا يقبلون لغيرهم نصحاً ولا إرشاداً، ولا تستطيع أن تقنع واحداً منهم تربى على ذلك خلاف ما تبع فيه شيخه مهما كان قولك بيناً، وهذا السلوك هو الذي أدى بالمتصوفة إلى تعظيم شيوخهم وخلع الصفات الممكنة وغير الممكنة عليهم، واختراع الألقاب لهم، وإضفاء هالة كبيرة على هذه الألقاب تشغل الذهن وتشد العواطف وتبعد المريد عن حقائق الأمور فيتعلق بهذه الخيالات التي لا يعلم بحقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى، وقد تبعده عن عبادة الله الواحد القهار، وتجعله يتعلق بمخلوق لا حول ولا قوة له إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى.

ورغم أن المتصوفة يعلمون أنهم يتجاوزون الحدّ في تعظيم الشيوخ ولكنهم يغتفرون ذلك، فقد نقل الشيخ أحمد زروق رحمه الله رأي ابن ليون في كتابه عدة المريد الصادق، (وقد سمح الأشياخ أن يجاوز الحد في شيخه حسب اعتقاده من غير غلو، ما لم يخرج إلى الطعن في المشائخ)[1] إلا أن هذا التعظيم الذي نراه لدى ابن عربي قد تجاوز الحدّ المسموح به على النحو الذي قاله الشيخ العارف النيسابوري، وهذا ما يجب أن تتصدى له الأقلام وتنهض به الهمم لتحرير العقيدة من الشوائب التي لحقت بها والرجوع إلى قواعد الشريعة وأصول العقيدة، والفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وخلاصة الأمر أن نظرية الإنسان الكامل هي فكرة في أساسها سليمة فالهدف من الرسالات السماوية السموّ بالإنسان إلى درجة الكمال الذي أرادها الله للإنسان عندما خلقه، وجميع ما يأمر به الدين الحنيف وينهى عنه يدخل ضمن هذا الهدف الذي يسعى إليه المهتدي بنور الله، وهو الاقتراب من الله

---

(1) عدة المريد الصادق، ص202.

والتحلي بالأخلاق القومية والابتعاد عن المحرمات، وأداء الفروض الواجبة ولكن المغالاة والتهويل وسوء التفسير والتأويل أدى إلى انحرافها وجعلها بعيدة عن الواقع.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

المبحث الثامن

دور التصوف في تنمية الشعور بالمسؤولية العامة (*)

❖ مقدمة :

يدل تاريخ التصوف، على أن المتصوفة في كل زمان ومكان، لم يكونوا منعزلين عن المجتمع الذي يعيشون فيه، فهم يتأثرون به، ويؤثرون فيه، سلباً أو إيجاباً، وإذا استقرأنا حوادث التاريخ نجد أن أهل التصوف في مختلف أرجاء الوطن الإسلام قاموا بعدة أدوار، ساهمت إلى حدّ كبير في كتابة التاريخ وتكوين الشعور بالمسؤولية العامة، والتي نعني بها هنا، الإحساس بالواجب الذي يقوم به الفرد، ليس لصالح نفسه، وإنما لصالح المجموع، وعندما يقوم بدوره، فإن النفع يعود عليه أولاً، كما يعود على غيره، سواء كان هذا الغير من أبناء جنسه، أو للكائن البشري جميعاً، فلا يقتصر مفهوم المسؤولية هنا على نطاق ضيق، بل يتسع ليشمل الإنسانية جمعاء، وهذا التفسير مستلهم من المبادئ والقيم الروحية والأخلاقية التي يقوم عليها التصوف وتنهض به رسالته والأهداف التي تتوخاها الطرق الصوفية.

ولمعرفة دور التصوف في تنمية الشعور بالمسؤولية العامة، لا بد لنا من

(*) نشر في مجلة الرفقة، العدد 12 الصادر فيي شوال 1372 و.ر، والموافق الكانون 2004ف، تصدر عن شعبة التثقيف بملتقى رفاق الأخ القائد، بطرابلس.

استعراض بعض المبادئ والقيم التي يقوم عليها التصوف، وبيان دورها في تنمية الشعور بهذه المسؤولية، والمظاهر التي يتجسّد فيها هذا الشعور وتجعلها بارزة للعيان، ولست في حاجة إلى التذكير بأن التصوف ليس كما يعتقده البعض، من أنه نقر الدفوف، وضرب السيوف، وأكل المسامير، وما إليها من حركات، إنما التصوف أسمى من ذلك كثيراً، فهو تهذيب للنفس ورياضة للروح، وسعي للكمال، وتدريب الفكر، هدفه بناء الإنسان والرقي بمستواه، بالابتعاد عن الرذائل، والالتباس بالفضائل، فهو الطريق إلى الله والتقرب إليه، ومهما أوتي الإنسان من أساليب البلاغة، فلا يستطيع أن يعبّر عن التصوف بما يستحقه.

ولا يمكن حصر كل ما يتعلق بالتصوف، من تاريخ وتجارب ورجال وأساليب ومناهج وقواعد، لمعرفة الدور قام به التصوف في تنمية الشعور بالمسؤولية العامة، ويبدو أن دراسة بعض الركائز التي يقوم عليها التصوف يمكن من خلالها البحث عن هذا الدور، وسأكتفي في هذه الورقة بالتطرق إلى أهمها، منها مؤسسة التربية، ومؤسسة الأخلاق، ومؤسسة العلم، والدفاع عن العقيدة، والدفاع عن الإسلام، وليس ذلك على سبيل الحصر، ولكن على سبيل المثال، فمن خلال هذه الأركان يمكننا أن نتلمس دور التصوف في تنمية الشعور بالمسؤولية العامة.

❖ أولاً ـ مؤسسة التربية

لا يخفى على أحد أن التربية من أهداف التصوف، فلا يمكن أن تنهض طريقة صوفية، إلا إذا وضعت في اعتبارها المنهج التربوي الذي تسلكه، في سبيل نشر مبادئها وتعليم أورادها، وسبيلها لتكوين المريدين، يقول الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني رحمه الله: (إن التصوف حركة تربوية في جوهرها، ترمي إلى تصفية القلب، وسموّ الروح، وتهذيب الخلق، وصيانة

الجوارح من كل انحراف أو معصية، فهو تخلية من كل الأدران والانحرافات الروحية، والتدريب على العبادة والالتزام بالفضائل)[1].

ويدخل ضمن أهداف التصوف الإسلامي، توجيه وجدان البشرية جميعاً نحو الخير، وإشاعة روح التراحم والتآخي والتعاون والتضامن في المجتمع الإسلامي، وإذابة الفروق المذهبية فيه، فهذه الغاية التي تغيب عن ذهن الكثيرين، إنما تجسد فعلاً دور التربية في تحقيقها، وهي لا شك مسؤولية عامة تقع ضمن أهداف التصوف النبيلة، فلا يكفي أن يشعر الصوفي وحده بسعادتها وحلاوة الوصول إليها، أي تربية نفسه على المبادئ القويمة، بل تتجه نفسه إلى توجيه وجدان البشرية جمعاء ولتحقيق غاية التربية، لا بد من الاقتداء بشيخ يستطيع أن يأخذ بيد المريد، ويسلك به الطريق لتحقيق المقصود، يقول الشيخ زروق رحمه الله: (ضبط النفس بأصل يرجع إليه في العلم والعمل لازم لمنع التشعب والتشعث، فلزم الاقتداء بشيخ قد تحقق اتباعه للسنة، وتمكنه من المعرفة ليرجع إليه فيما يرد أو يراد، مع التقاط الفوائد الراجعة لأصله من خارج، إذ الحكمة ضالة المؤمن، وهو كالنحلة ترعى من كل طيب، ثم لا تبيت في غير جبحها[2] وإلا لم ينتفع بعسلها)[3].

ومما يحققه الدور التربوي أيضاً، تلقين الشيخ للمريد، وتعليمه كيفية الذكر، وإرشاده إلى فعل الطاعات، وتجنب المحارم، والتوبة عن ما قام به من أفعال مخالفة للشريعة الإسلامية، ثم يأخذ منه العهد، وهو كما قال الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني: العهد يكون على الامتثال لأمر الله تعالى فعلاً وتركاً فإذا عاهد المريد الشيخ على الالتزام بنوع خاص من الطاعة، يصبح ملزماً بالوفاء

(1) دور التراث في تأكيد الأصالة، الأستاذ الدكتور: عمر التومي الشيباني، ص137، نشر جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس ـ ليبيا، الطبعة الأولى، 2000ف.
(2) الأجباح: جمع الجبح، خلية النحل، مختار القاموس، ص91.
(3) قواعد التصوف، للشيخ أبي العباس أحمد زروق، رضي الله عنه، القاعدة رقم 66، ص51، نشر دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى 1992ف.

والالتزام به[1] وصفة الوفاء هي من صميم أخلاق المسلمين، وقد ورد النص عليها في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[2].

وقد أثمرت هذه التربية أكلها، وساعدت المسلمين في جمع الشمل، والارتقاء بالأخلاق، وخاصة في الفترات التي سيطرت فيها على الشعوب الإسلامية الدول الاستعمارية بما جلبته من تحلل أخلاقي وعادات مخالفة للشريعة الإسلامية، يقول الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني رحمه الله في دراسته للطرق الصوفية في المغرب العربي: (وقد لقيت الطريقة العيساوية قبولاً كثيراً بين الشباب، وكان لها فضل كبير في فترات الاستعمار واليأس والإحباط وسوء الأحوال السياسية في جمع شمل الشباب والمحافظة عليهم ووقايتهم من الانحراف)[3] وهذا على سبيل المثال، إذ إن كافة الطرق الصوفية إنما تهدف لنفس الغرض، وتسعى إليه عن طريق مؤسسة الأخلاق.

❖ ثانياً ـ مؤسسة الأخلاق

ليست التربية في حدّ ذاتها هي المقصد الأسمى للتصوف، بل هي وسيلة إلى غاية، ومن الغايات الأساسية التي يسعى التصوف الإسلامي ـ بوصفه سلوكاً ـ إلى تحقيقها عن طريق العبادات والمجاهدات، والرياضة الروحية، والعمل، بمقتضى تعاليم الإسلام، هي الغايات التالية: (تطهير القلب، وتزكية النفس، وإيقاظ الضمير، التخلي عن عيوب النفس والقلب، من رياء وحسد وحقد وكذب ومقاومة كل مغريات الانحراف في السلوك، والتحلي بالفضائل التي دعا إليها الدين من إيمان وتقوى لله وخشية منه، وأمانة في المعاملة، وما إلى ذلك)[4].

---

(1) الحجة المؤتاة، تأليف الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني، ص172، نشر مكتبة جمهورية مصر، الطبعة الثانية، 1992ف.

(2) سورة الإسراء، الآية: 34.

(3) دور التراث في تأكيد الأصالة، ص196.

(4) المصدر السابق، ص138.

ومن ثم يكون اعتماد التصوف في تكوين المريدين على تربيتهم بالخلق الحسن لكي يتحقق ذلك السلوك، فالأخلاق نتاج التربية، والسّمة المصاحبة للمتصوف في حله وترحاله، لذلك نرى أغلب فقهاء التصوف يحثون المريد على تقويم الأخلاق، يقول الإمام الشوكاني في كتابه قطر الولي على حديث الولي: إن أول الأشياء ترك المحرمات ما ظهر منها وما بطن، وإن أغلب المصائب إنما تأتي من المعاصي الباطنة، أما الظاهرة، فقد يمنع منها الحياء والمروءة، فتجب طهارة الباطن في أساس الهداية، والرياء من أشدها، فهو مبطل للعمل، موجب للإثم، وهو من أضر المعاصي الباطنة، وكذلك الظن السيئ والحسد.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا**»[1] ثـم الكبر وقد وردت فيه أحاديث كثيرة في ذمه، قال رسول الله ﷺ: «**من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة حتى يجعله في أعلى عليين**» وكذلك البغض والكراهية[2] فكل هذه الصفات يجب على المسلم عموماً أن يبتعد عنها، والصوفي على وجه الخصوص أن يتجنبها.

يقول الإمام الشاذلي رحمه الله: أيها المريد اعلم أن سبعة أشياء تقطع عن الارتقاء بالتوبة، وهي: الحقد، والحسد، والعجب، والرياء، والكبر، وحب المحمدة، ولذة الرياسة، واعلم أن من كان في قلبه ثلاثة أمور، وهو يدعو الله بالتوبة، فهو زنديق: الافتخار بالعلم، وسوء الخلق وسوء الظن بالخلق[3].

وقال سيدي عبد السلام الأسمر رحمه الله في رسالته إلى أصحابه بسوس الأقصى: وعليكم بالإحسان إلى جيرانكم، وأصحابكم، فمن لم يتأدب مع سائر

---

(1) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب عن حمزة بن ثعلبة، حديث رقم 4378 ص373/ 3 طبعة المكتب العثماني القاهرة 2002.

(2) قطر الولي على حديث الولي، للإمام الشوكاني، تحقيق: د. إبراهيم هلال، ص460، نشر دار الكتب الحديثة ـ مصر ـ 1977ف.

(3) كتاب الإمام الشاذلي، ص80.

الخلق، لا ينتفع من انتسابه بشيء، قال بعض العلماء: فمن جهل المريد أن يسيء الأدب، فتؤخر العقوبة، فيعتقد أن ذلك لا شيء فيه، ولكن ذلك جهل وانطماس بصيرة، بل عقوبة مؤجلة، وفيه قطع الإمداد[1].

وللتدليل على أن الأخلاق من الأشياء التي تحتل مكاناً في التصوف قديماً وحديثاً، وأنها من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الصوفي، نختم ذلك بما نقله الشيخ الأستاذ أحمد القطعاني عن سيدي محمد بن عيسى رحمه الله، أنه كان يشترط على المريد قبل الدخول معه في الطريق (امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، والمحافظة على الصلوات، ومراقبة الله تعالى في جميع الأوقات، والصمت، والمحبة والصبر، والعزلة، والحنان، والرأفة)[2].

فهذه كتابات أهل التصوف وتعاليمهم، ومنها تتضح رسالة التصوف الأخلاقية، وقيام التربية الصوفية على مبادئ من غايتها تقويم أخلاق المريد وتحْسين سلوكه، وهي ومدرسة عظيمة ساهمت في إرشاد الإنسانية جمعاء على مرّ العصور، وتحقق مبدأ المسؤولية العامة التي تقوم بها هذه الرسالة، وليس أدل على ذلك ما قاله الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (الثاني: إسبال الخلق على الخلق بسطاً، وهذه حقيقة التصوف، فإنه كما قال أبو بكر الكتاني: التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)[3].

❖ ثالثاً ـ مؤسسة العلم:

إن من أهم مبادئ التصوف هو ارتكازه على العلم، فلا ينخدع المرء بما يلاحظه على اتباع الطرق الصوفية، كونهم أميين، أو بسطاء، فلا يمنع ذلك

---

(1) رسائل الشيخ عبد السلام الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور مصطفى عمران رابعة، ص290، نشر دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، ط1، 2003ف.

(2) الحجة المؤتاة ـ المصدر السابق، ص148.

(3) مدراج السالكين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية، ص 351/ 1، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2001ف.

اتباعهم للطريقة، وسلوكهم في منهاجها، ويكفيهم العلم بأحكام العقيدة الصحيحة، والإلمام بأحكام العبادات المطلوبة، ومعرفة ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ومع ذلك فإن التصوف إنما يقوم في حقيقته على العلم، ولا يعتبر التصوف مناقضاً له، بل هو مناصر وداع إليه، خلاف ما يعتقده البعض، لأن التصوف هو التقرب إلى الله تعالى، والطريق إلى ذلك لا يكون إلا بالعلم فالعلم وسيلتنا إلى معرفة الله تعالى حق قدره، وتقربنا إليه لا يتم إلا به، وفي قواعد الشيخ زروق رحمه الله ما يدل على ذلك، قال رحمه الله: (الاشتراك في الأصل يقتضي الاشتراك في الحكم، والفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد، في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله)[1].

فأنت تلاحظ من كلام هذا العالم الجليل، والمتصوف الكبير، مدى ارتباط التصوف بالعلم، وعلاقة كل منهما بالآخر، فالتصوف كعلم له قواعد وأصول يرتكز عليها، وهذه القواعد والأصول لا تخالف أحكام الشريعة الإسلامية، بل كلها تتفق معها، ولهذا يؤكد هذا المصلح الكبير على ذلك في مؤلفاته الأخرى، حيث يقول في كتابه عدة المريد الصادق (ثم إن الفقه والأصول شرط فيه ـ أي التصوف ـ والمشروط لا يصح بدون شرطه، والشرط أن يكون بما يرضاه الحق، ومن حيث يرضاه، . . إلى أن يقول (فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا حقيقة للعلم إلا بالعمل، ولا عمل إلا بصدق توجه. . .)[2].

نخلص من كل ذلك أن التصوف إنما يقوم على العلم، فلا يتقوقع المتصوفة عن طلب العلم في جميع المجالات، وليس في الفقه والأصول

(1) قواعد التصوف، للشيخ زروق، القاعدة رقم 20، ص19.
(2) عدة المريد الصادق، للشيخ أحمد زروق، تحقيق الأستاذ الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني، ص38، نشر مكتبة طرابلس العلمية العالمية ـ ليبيا ـ الطبعة الأولى 1996ف.

فقط، ولذلك نجد التاريخ الإسلامي زاخراً بسيرة أعلام الأمة الإسلامية في العديد من مجالات العلم، وهم في نفس الوقت من كبار المتصوفة، فالإمام الغزالي رحمه الله من أكابر الفقهاء والفلاسفة، ثم هو من أكبر علماء التصوف والشيخ زروق رحمه الله من كبار العلماء، وهو أيضاً من أبرز أعلام التصوف والإمام ابن القيم رحمه الله من كبار الأئمة في الفقه، وكتابه مدارج السالكين من خير ما كتب في مجال التقرب إلى الله، وعبادته بالطريقة الصحيحة، فهذا الكتاب حاول فيه أن يجعل من كتاب [منازل السائرين] لأبي إسماعيل عبد الله ابن محمد بن علي الهروي الحنبلي الصوفي (ت481هـ) مناراً يهدي إلى الرشد، ودليلاً إلى صراط الله المستقيم[1] ويزيل به ما التبس على أهل التصوف من أمور لا تتفق مع أهدافه وأغراضه، وفي ذلك دليل على أن التصوف الحقيقي إنما يقوم على العلم.

• والقاضي عياض رحمه الله من أكابر الفقهاء، وكتابه الشفاء من أعظم ما كتب في سيرة المصطفى ﷺ، وبذلك يمكن القول إن اعتناق التصوف أو اتباع الطرق الصوفية لم تكن في يوم من الأيام عقبة أمام طلب العلم في جميع فروعه العقلية والنقلية، أو التطبيقية، بل على العكس من ذلك، كلما ازداد المرء علماً، ازداد يقيناً من قدرة الله تعالى، وقرباً إلى الله تعالى جلت قدرته ومن هنا كان كبار العلماء هم من رجال التصوف، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

❖ رابعاً ـ الدفاع عن العقيدة:

إن المتتبع لمسيرة التصوف لا يخفى عليه معرفة أن كنه التصوف هو العقيدة السليمة، وأساسها توحيد الخالق سبحانه وتعالى وتنزيهه بما هو أهله فلا يكون التصوف إلا بعقيدة صحيحة، فأول وأهم علم أوجبه الصوفية على

---

(1) مدارج السالكين، المصدر السابق، ص5، مقدمة الكتاب.

أنفسهم للشروع في السلوك، هو علم التوحيد، فكان هذا العلم أبرز ما ساد أقوالهم، ومرجعهم في ذلك كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[1].

يقول الشيخ أحمد بن حمادي رحمه الله في عقيدة التوحيد: يجب على كل مكلف عيناً، قبل أن يشتغل بشيء، على الراجح، أن يعلم ويعتقد، أن الله تبارك وتعالى واحد، منزه عن الشبيه والشريك والمعين والصاحب، والزوجة والوالد والولد، لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، باق لا زوال له، أبدي لا نهاية له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت جلاله وكماله، ليس كمثله شيء وهو الكبير المتعالي، وهو على كل شيء شهيد، لا تحويه السماوات والأرض. . .[2].

فإذا كان التوحيد، وهو أول ركن في الدين الإسلامي، لا يتم الإيمان إلا به، وتمثله شهادة لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، فهو واجب على كل مسلم، إذ يجب معرفته ولو بالدليل الإجمالي، فهو للمتصوف شرط أساسي، بل يجب عليه معرفته بالتفصيل والتعمق، يقول الشيخ عبد السلام الأسمر رحمه الله في رسالته لأحد الصالحين بغريان:

(واعلموا: أن معرفة التوحيد على أربعة أقسام: ذاتية، ومعنوية، وفعلية وسلبية، أما الصفة الذاتية فهي: الوجود، والوحدانية، والقدم والبقاء، والقيام بالنفس، والمخالفة للحوادث، وأما المعنوية فهي: العلم والقدرة، والإرادة والحياة، والكلام، والسمع والبصر، وإدراك جميع الملموسات، فهي لمعنى قائماً بذات الله تعالى الخالق الرازق، وأما الصفة السلبية، فهي: لا شبيه له، ولا والد له، ولا صاحبة له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

---

(1) التصوف الإسلامي بين السنية والتطرف، الأستاذ محمد محمد بن يعيش، ص33، نشر مركز الخدمات المتحدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1993ف.

(2) حادي العقول إلى بلوغ المأمول، للشيخ أحمد بن محمد بن حمادي، تحقيق: د. جمعة محمود الزريقي، ص136، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس ـ ليبيا، الطبعة الأولى 1998ف.

(3) رسائل الشيخ عبد السلام الأسمر، المصدر السابق، ص195.

يتضح لك ـ أيها القارئ الكريم ـ من أقوال علماء التصوف التي ذكرت وهي غيض من فيض، أن عقيدة التوحيد تأخذ الحيّز الأكبر من تعاليمهم فسلامة العقيدة شرط للدخول في أي طريقة صوفية، ولا يكفي فيها معرفة أن الله واحد لا شريك له، وأنه الخالق الرازق، والبارئ المصور، . . . إلخ، ذلك من صفاته الكريمة، أو أسمائه الحسنى، أو النطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، بل يجب عليه معرفة ما يدخل تحت هاتين الشهادتين من أمور يتحتم اعتقادها، حتى تكون العقيدة سليمة، لا يشوبها شائبة.

وعلماء التصوف عندما يتناولون العقيدة، يقومون ببيان كل الأمور الاعتقادية التي يجب على المسلم والصوفي معرفتها والإيمان بها، منها أن قولنا «لا إله إلا الله» تضم خمسين عقيدة، وتحت الجملة الثانية «محمد رسول الله ﷺ» ست عشرة عقيدة، إذ معنى الإله هو المستغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه، فيدخل تحت غناه ما يليق به من العقائد، وهي إحدى عشرة عقيدة من الواجبات، وأضدادها إحدى عشرة من المستحيلات، وثلاثة هي من نفي الجائزات، وتحت افتقار الكائنات يدخل تسعة من الواجبات واثنان من الجائزات وتسعة من المستحيلات، ومجموع ذلك خمسون عقيدة، ويدخل تحت «محمد رسول الله» ستة عشرة عقيدة، فإذا ضمت إليها ما يجب اعتقاده تحت شهادة «لا إله إلا الله» فالجملة ست وستون عقيدة، يجب الإيمان بها في ظل الشهادتين[1].

❖ خامساً ـ الدفاع عن الإسلام:

ذلك فيما يخص العقيدة من تعليمها للمريدين الراغبين في سلك التصوف، وغرسها في نفوسهم، وهي التي يجب تسليط الضوء عليها، رغم ما

(1) حادي العقول إلى بلوغ المأمول، المصدر السابق، ص139 ـ 140.

يقوله البعض من أن عقيدة المتصوفة قد تشوبها بعض الشوائب إذ إنهم يقدسون شيوخهم، ويزكون الأولياء، ويؤمنون بكراماتهم، وهذا في حدّ ذاته شرك بالله ولكن الأمر يحتاج إلى بيان، ذلك أن الاحترام والتبجيل للشيوخ لا يدخل في مجال العقيدة بحال، وإنما مرجعه إلى علاقة الشيخ بالمريد، والاقتداء بأفعاله وأقواله، لأن الصوفي يسعى للكمال، ويرى في شيخه أنه القدوة، ولذلك يبالغ في تقديره واحترامه، وهذا الموضوع إنما يتم بحثه ضمن موضوع الإنسان الكامل، وذلك يحتاج إلى مزيد من التفصيل، قد أعود إليه في مناسبة أخرى بإذن الله تعالى[1].

أما فيما يخص الدفاع عن العقيدة تجاه العدوان الذي تمّ في السابق على ديار الإسلام من قبل أعدائه، فلا يستطيع أحد أن ينكر دور الطرق الصوفية في الجهاد ضد الاستعمار، (فالجهاد هو روح التصوف وعماده، وهو قطب مداره وصلب موضوعه، في كافة الميادين، فهو الجهاد الأكبر، جهاد النفس، وكبح جماحها، كي لا تستبدل الفاني بالباقي، والصبر على الطاعات بإتيانها، والصبر على المنهيات بتركها، هو جهاد يومي يخوضه الصوفي، ويجعله منهاجاً له في حياته، والجهاد بالمال كذلك، أما الجهاد بالنفس من أسهل أنواع الجهاد قاطبة على الصوفي، فهو المؤمن حقيقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

لذلك تصدى المتصوفة، مع كافة طوائف الشعب، عند ابتلاء بلادنا بالاستعمار للجيوش الاستعمارية التي جاءت لاحتلال ليبيا، وكان لهم الدور

(1) يراجع فيما سبق مقال حوار مع الشيخ العارف النيسابوري، وفيه تفصيل الكلام حول الإنسان الكامل.

(2) شيخ الشهداء الصوفي عمر المختار، ص1، والآية في سورة التوبة 111، طبع ملتقى التصوف الإسلامي العالمي، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى، 16 ـ 18 الفاتح 1995ف.

الكبير في الجهاد دفاعاً عن الوطن والعقيدة، وضرب أروع الأمثال في ذلك ولنا أصدق مثال في الصوفي الكبير، رمز الجهاد الإسلامي الشهير، شيخ المجاهدين، السيد عمر المختار، أحد أكبر من عرفهم تاريخ الجهاد من قادة وأفضل مثال لما تكون عليه النفس الإنسانية، من إباء للضيم ورفض للظلم واستشهاد في سبيل الحق[1].

ولا يقتصر الأمر على بلادنا، بل دأبت الحركة الصوفية في كل أرجاء الوطن الإسلامي التي واجهت الاستعمار إلى تعبئة المسلمين وبثّ روح الجهاد دفاعاً عن الإسلام وحماية للعقيدة، يقول الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني رحمه الله في بحثه حول الحركات الصوفية التي ربطت الأقطار المغاربية: إن الحركة الصوفية كان لها فضل كبير في رفع معنويات الشعوب المغاربية وتوحيد صفوفها، وتقوية روح المقاومة في نفوسها ضد القوى الأجنبية من الإسبان والبرتغاليين وغيرهم الذين أخذوا يغيرون على المدن الساحلية المغاربية بعد سقوط الأندلس بدعم مادي ومعنوي من الكنيسة الغربية، ودفعها للجهاد في سبيل الله، ومواجهة الروح الانهزامية والاتجاهات اليائسة التي تظهر عادة في فترات اليأس والانحطاط والتي ينقسم فيها الناس عادة إلى فريقين: فريق يتجه نحو المتعة المادية واللهو والانحلال، وفريق يتجه نحو المحافظة المبالغ فيها ونحو التدين والبحث عن السعادة الروحية في ملكوت الله[2].

وإذا تمعنا في دراسة تاريخ التصوف، وخاصة خلال فترة التخلف الحضاري الذي عانت منه البلدان العربية والإسلامية، والتي أعقبها الاستعمار مستغلاً تلك الأوضاع من جهل وفقر ونقص في الموارد، نجد أن الطرق الصوفية ومن خلال الزوايا التي كانت منتشرة، تقوم بدور فعال، ليس في مجال المحافظة على العقيدة فقط، أو الدور التعليمي لكتاب الله واللغة العربية

---

(1) شيخ الشهداء عمر المختار، المصدر السابق، ص4.

(2) دور التراث في تأكيد الأصالة، المصدر السابق، ص191.

فحسب، بل كان لها دور في تقوية الروابط بين السكان، وليس أدل على ذلك ما نقلته سابقاً من قول الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني ـ رحمه الله ـ حول الدور الذي قامت به الطريقة العيساوية التي لاقت قبولاً كثيراً من الشباب، وكان لها فضل كبير في فترات الاستعمار واليأس والإحباط وسوء الأحوال السياسية في جمع شمل الشباب والمحافظة عليهم ووقايتهم من الانحراف[1].

يتبين لك ـ عزيزي القارئ ـ الدور الكبير والمهم الذي قام به التصوف من خلال مبادئه ومؤسساته وجهود علمائه الصالحين والمصلحين، في تنمية الشعور بالمسؤولية العامة فبقدر ما تهدف رسالة التصوف إلى إصلاح الفرد المسلم وتقوية عقيدته وتنقيتها من الشوائب وتربيته التربية القويمة التي تجعله قريباً من الله تعالى بصورة دائمة، بقدر ما تهدف إلى تكوين مجتمع إسلامي متعاطف متكاتف، يشد بعضه بعضاً، مبني على عقيدة متينة وأخلاق نبيلة وشعور جماعي، وبذلك يحقق التصوف رسالته الإنسانية.

والله ولي التوفيق، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

(1) المصدر السابق، ص196.

المبحث التاسع

رحلة الشيخ محمد المسعودي لتوثيق السند الصوفي(*)

❖ من الرحلات الليبية: رحلة الشيخ أبي عبد الله محمد المسعودي الصيدي إلى تونس سنة (1848ف) لتوثيق السند الصوفي:

نواصل تسليط الضوء على رحلات علماء ليبيا إلى البلدان الأخرى وهي كما أسلفنا رحلات متعددة الأغراض، منها لطلب العلم والتلقي، ومنها للتجارة والزيارة، ومنها لأداء فريضة الحج، ومنها لنشر العلم أو الطريقة الصوفية، ومنها لربط السند العلمي مع كبار العلماء في مختلف الحواضر، فعلماء هذه البلاد يتميزون بتحصيلهم العلمي داخل حواضرهم التي يعيشون فيها، حيث يتلقونه عن علمائها وشيوخها، وغرضهم من السفر لبلدان أخرى إنما هو لتوثيق السند العلمي[1]، وهذه الرحلة تدخل ضمن هذا الغرض الأخير.

وصاحب هذه الرحلة هو من كبار علماء ليبيا، ومن كبار رجال التصوف

(*) نشرت في العدد 13 من مجلة الرفقة، الصادر بتاريخ الربيع 2005، تصدر عن شعبة التثقيف بملتقى رفاق الأخ القائد.

(1) يراجع بحث الأستاذ الدكتور محمد جبران، بعنوان: من مظاهر الحركة الفكرية والأدبية في ليبيا، الرحلات العلمية وتوثيق السند العلمي في العصر الحديث، أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا، واقعها وآفاق العمل حولها، ص227، الجزء الأول، زليطن 1988.

فيها، وممن أسهم في الحركة الفكرية بعدة مؤلفات في عدة أغراض علمية لا تزال في طي النسيان لم تذكرها المصادر التي ترجمت له[1] وله دور إصلاحي كبير من خلال طريقته الصوفية، وصراعه مع بعض المتصوفة في أمور تتعلق بالمظاهر الاحتفالية، ونشاط كبير في محاربة الظلم والفساد أواخر العهد القرمانلي وأوائل العهد العثماني الثاني[2]، ورحلته هذه كان الغرض منها توثيق السند العلمي في علم التصوف وتلقي الإجازة في الطريقة العيساوية، وقد دون رحلته باختصار في صفحتين فقط، لذلك نحاول تحقيقها اعتماداً على روايتين لها، وعلى بعض المصادر المكتوبة والمخطوطة، وقبل ذلك نقوم بالتعريف بصاحب الرحلة باختصار:

أولاً ـ التعريف بصاحب الرحلة:

هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد المسعودي بن محمد التواتي بن محمد المسعودي بن محمد الصيدي، ولد في منطقة الهنشير شرقي طرابلس الغرب سنة 1214هـ (1799ف) وهو من أسرة كريمة وبيته بيت علم وصلاح حفظ القرآن الكريم في صغره، ثم تلقى علوم الفقه والحديث على شيوخ بلده ومنهم الشيخ محمد بن علي بن عبد النور، تلميذ الشيخ إبراهيم بن عبد النور وهو ممن درس بالأزهر الشريف، ثم تلقى الطريقة العيساوية الشاذلية على شيوخ طرابلس، وبهذا التحصيل العلمي أصبح الشيخ المسعودي ذا مكانة علمية كبيرة

(1) ترجم لصاحب الرحلة الأستاذ أحمد النائب في نفحات النسرين والريحان، ص170 ـ 171، وله ترجمة دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص596، ونقل الشيخ محمد زغوان ترجمته كاملة في رحلته المسماة النفحات القدسية في الرحلة الحجازية، ص12 ـ 17، مخطوط لدى أسرة المؤلف.

(2) كتبت عنه مقالاً علمياً بعنوان: العالم الصوفي والمجاهد الشهيد، الشيخ أبو عبد الله محمد المسعودي، أحد أعلام الزاوية العيساوية بطرابلس، حاولت فيه أن أترجم له باستفاضة، مع ذكر مؤلفاته حسبما ذكرها الشيخ محمد زغوان في رحلته، المقال نشر تحت عنوان التصوف عند المسعودي، في مجلة الأسوة الحسنة، العدد 42 السنة الثامنة، غرة محرم الحرام، 10/ 2/ 2005.

قال عنه الشيخ محمد زغوان: إنه كان من أجلّ وأعظم علماء طرابلس، وهو نادرة عصره وفريد دهره في الحفظ والنقل الصحيح، خصوصاً في علمي الحديث والفقه، وقد انتفع به خلق كثير، وشدت إليه الرحال من كل الجهات ليأخذوا عليه العلم والفتوى ورواية الحديث[1].

ويذكر الأستاذ أحمد النائب أن الشيخ المسعودي رحل إلى مصر، وجاور بالأزهر، وحضر مجالس أهل العلم والعرفان، ولقي الأفاضل من الأساتيذ الكبار، ونال علماً وافراً، وأجازوه بما لديهم من معقول ومنقول، وعاد إلى بلده، فكان صدراً من صدور الأفاضل، مؤلفاً متقناً مجيداً، ومن أصحاب الحديث والرواية، حافظاً لحديث البخاري ورجاله، حائزاً من العلوم الأصولية والفروعية أوفر نصيب ذاكراً للمذهب لا يجاريه فيه أحد[2].

شارك الشيخ محمد المسعودي في الحياة الثقافية بتدريس العلم والفتوى، وتربية المريدين على طريقته الصوفية، وإلى جانب ذلك ألف مجموعة من الكتب، لم تذكرها المصادر التي ترجمت له، فقط أشارت إلى أنه مؤلف إلا أن الشيخ محمد زغوان ذكرها كاملة في رحلته المجازية، ويبدو أنها لا تزال مخطوطة لدى أسرته، وعددها ثلاثة عشر كتاباً في مختلف العلوم، ولكن أغْلبها في علم التصوف[3].

يعود سبب الرحلة إلى أنه اختلف مع بعض متنسبي الطريقة العيساوية في الأعمال التي تقام أثناء الاحتفال بالمولد النبوي، وهي: وضع البخور وأكل المسامير وضرب الدفوف والسكاكين، فأنكر عليهم ذلك، وقال لهم: إن الطريقة هي الكتاب والسنة، والطريقة التي تخرج عن الكتاب والسنة ليست بطريقة، ثم سلم سبحته لمقدم الطريقة إشارة منه إلى تركها، بعد ذلك توجه إلى

(1) النفحات القدسية، للشيخ زغوان، ص12.
(2) نفحات النسرين والريحان، لأحمد النائب، ص171.
(3) النفحات القدسية، المصدر السابق، ص17.

تونس لمقابلة شيخ الطريقة هناك، ومكث هناك ما يقارب من الشهرين، ثم عاد بعد أن تحصل على إجازة منه في الطريقة الصوفية[1].

كانت الرحلة بحرية، وكان يصحبه فيها اثنان من تلاميذه، وصادف فيها متاعب وأهوال، إلا أنه لم يذكرها بالكامل في نص الرحلة، كما لم يذكر سببها ودونها مختصرة جداً، إلا أن أحداثها لم تكن خافية فيما يبدو، لذكرها في مصادر مطبوعة ومخطوطة، مما يدل على أنها معروفة لأهل التصوف وأخبار أهله، وسوف نقوم بتحقيق نص الرحلة اعتماداً على روايتين، الأولى: نص مكتوب بخط الشيخ محمد سعيد بن أحمد المسعودي، (د. ت) نقلاً عن جده صاحب الرحلة، والثانية: نص برواية الشيخ سالم الشامس الطاهر ضرغام سمعه من الشيخ محمد سعيد المسعودي، كتب التاريخ 15/ 9/ 1993، وعلى المعلومات التي وردت عنها في رحلة الشيخ محمد زغوان، وما ذكره الأستاذ أحمد القطعاني حولها أيضاً.

ثانياً ـ نص الرحلة:

ومما نقلته من خط المرحوم جدنا العلامة الشيخ محمد المسعودي الصيدي، ما نصه حرفياً: [الحمد لله، ركبنا ليلة الخميس في التاسع عشر من شعبان سنة 1264هـ (توافق 28/ 7/ 1848م)، البحر، وحل القلاع من حينه[2] فسرنا، وأصابنا ليلة الجمعة رياح شديدة حتى أيس كل عاقل من الحياة[3] ثم فرج الله فبلغنا بلد جربة[4] عشية الجمعة، وأقمنا بالبحر إلى ليلة الثلاثاء، لأن

---

(1) الرحلة برواية الشيخ سالم ضرغام، نقلاً عن الشيخ محمد سعيد المسعودي، كتبت حديثاً بتاريخ 21 ربيع الأنوار 1414هـ، الموافق 15/ 9/ 1993م.

(2) حل القلاع، يعني انطلاقة المركب لأنها شراعية.

(3) تذكر المصادر أن سبب ذلك قراءة حزب سيدي بن عيسى، النفحات القدسية، ص12.

(4) جربة: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، أقرب بلاد إليها قابس، طولها ستون ميلاً، ذات نخل وكروم، بينها وبين البحر نحو ميل، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، حققه الدكتور إحسان عباس، ص158، مكتبة لبنان، بيروت، 1975.

الرياح ملتمة[1] لم ندرك بها مرسى السوق[2] وليلة الثلاثاء نزلنا لتكميل الكرنتينة[3] فأقمنا بها ثمانية أيام، وخرجنا صبيحة الأربعاء، ثالث رمضان فأقمنا بجربة سبعة أيام.

فركبنا منها ليلة الثلاثاء، بل يوم الثلاثاء عشية، فنزلنا عشية الأربعاء صفاقس[4]، وركبنا منها عشية الجمعة، فبتنا في المرسى، وسافرنا بالصبح فبتنا ليلة الأحد بالبحر، وليلة الاثنين بالمهدية[5]، وسافرنا ضحى فنزلنا تونس[6] صبيحة الأربعاء سابع عشر رمضان.

فنزلنا بداخل المحروسة[7] بوكالة الكبابجية[8] بقرب جامع الزيتونة[9] قبل

---

(1) الرياح ملتمة (أي ساكنة مما تعذر معه سير المركب).

(2) مرسى السوق، أي الذي يقابل حومة السوق، وهي حاضرة جزيرة جربة.

(3) الكرنتية، الحجر الصحي.

(4) صفاقس: مدينة بإفريقية، (تونس الآن) بينها وبين قفصة ثلاثة أيام، وهي مدينة قديمة عامرة، لها أسواق كبيرة وعمارة شاملة، وعليها سور حجارة، وشرب أهلها من المواجل، ويجلب عليها الفواكه من قابس، ويصاد بها من السمك، وجل غلاتها الزيتون، الروض المعطار، المصدر السابق، ص365.

(5) المهدية: مدينة محدثة بساحل إفريقية، (تونس الآن) بناها عبيد الله الشيعي سنة 300هـ، وبينها وبين القيروان ستون ميلاً، والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهات، وربضها يعرف بزويلة، فيه الأسواق والحمام، وهي مدينة حسنة ومقصد للسفن، وإليها تجلب البضائع الكثيرة، الروض المعطار، المصدر السابق، ص561 ـ 562.

(6) تونس: مدينة بإفريقية محدثة إسلامية، أحدثت عام ثمانين، حيث اجتمع بها الناس وسكنوا فيها، ثم صارت مدينة وعمرت، وصارت عاصمة للحفصيين ومهاجر أهل الأندلس، فكثر خلقها، وأحدثوا بها المباني والكروم والبساتين والغروس، وبينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام، الروض المعطار، المصدر السابق، ص143 ـ 144.

(7) المحروسة: تعبير يطلق على كل المدن العربية تيمناً بسلامتها من الاعتداء.

(8) يقول الشيخ ضرغام في روايته للرحلة: وعندما دخلوا تونس اتجهوا إلى الفنادق ليكتروا لهم بيتاً في الفندق ليستريحوا فيه، فامتنع أصحاب الفنادق من الكراء لهم نظراً لهيئتهم. . ، وأخيراً وجدنا صاحب فندق قال لنا بالحرف الواحد: يا طرابلسية أنا عندي بيت في الفندق، ولكنها مهجورة كلها عنكبوت، فإن أردتموها فاصعدوا إليها، ونظفوها فهي لكم، فشمرنا عن سواعدنا، وقمنا بكنسها وتنظيفها، ص1.

(9) جامع الزيتونة هو الجامع الأعظم في مدينة تونس، وتم تشييده منذ دخول المسلمين الأوائل إليها، ويرجح أنه أقدم المساجد، كتاب جامع الزيتونة، ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، للأستاذ الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، 1980م.

العصر، وصلينا الظهر بالجماعة به، والعصر والمغرب، وقمنا الخميس والجمعة، وفي ضحى يوم السبت أمرت بعض الإخوان بإحضار الكاغد[1] لأكتب ورقة للشيخ سيدي علي الشريف[2] شيخ الطريقة العيساوية، فمشى لإحضاره، ودخل علينا جاوش[3] الشيخ سيدي أحمد بعثه الشيخ لنا، وقال له أولاده وإخوته: هذا الشيخ فلان دخل تونس فابحثوا عنه بقرب جامع الزيتونة وسلموا عليه وقولوا له: لا بد أن يصلي المغرب بدارنا، في حومة عاشور بقرب باب سويقة[4] من المحروسة فأخبرنا الجاوش بذلك، وواعدنا أنه يأتينا عشية وبلغ لنا سلام الشيخ، لأنه رضي الله عنه كان متضعف[5].

فذهبنا لداره مع الجاوش، وتعشينا ببيت ابنه سيدي أبي بكر، المدعو بكار، بأصناف الأطعمة، ثم دخلنا على الشيخ ببيته، فوقف ورحّب بنا وصافحنا، وأجاز لي، وأخبرني بأني ألقيت في روعه، وبأنه مترقب قدومي منذ زمان، وبأني قد شخصت له، وذلك بعدما صلينا المغرب بدارهم، وتذاكرنا معه، ثم بتنا، وأتينا لدار سيدي سليمان أحد الفقراء[6] ليلة الاثنين، وفي ليلة الأربعاء أيضاً، وعملوا لنا مبيتة بالربط عند القلالين بقرب باب قرطاجنة[7] ثم في

(1) الكاغد: ورق للكتابة، ولم يذكر الشيخ في رحلته التي كتبها المرافقين معه سوى اسم البوني كما يلاحظ فيما بعد، إلا أن رواية الشيخ سالم ضرغام ورد فيها أن الشيخ يرافقه شخصان: أولهما الشيخ علي البوني، والشيخ يوسف معلم، ص1.

(2) هو الشيخ علي بن قاسم بن محمد بن مصطفى الشريف الحسني الإدريسي، ولد بمدينة تونس العاصمة، وأخذ العلم عن رجال عصره ومصره، إذ لم تذكر له رحلة لطلب العلم، بل نشأ بتونس على أكمل حال وأفضله، وهو سليل أسرة توارثت التصوف كابراً عن كابر، وتولى مشيخة الطريقة العيساوية، ترجم له الأستاذ أحمد القطعاني في كتابه حراس العقيدة، ص119 ـ 122، وذكر أخذ الشيخ المسعودي عنه، نشر مكتبة مكناس بطرابلس، الطبعة 2، 2001م.

(3) جاوش: شاوش، وهي وظيفة في الزوايا الصوفية لمن يقوم بالزاوية وخدمة المريدين تحت إشراف شيخ الزاوية، أو شيخ الطريقة.

(4) مدخل مدينة تونس الشرقي، وهو معروف ومشهور حتى الآن.

(5) متضعف: باللهجة الدارجة يعني مريض، أو طريح الفراش من المرض.

(6) الفقراء: اسم يطلق على منتسبي الطريق الصوفية، أي أنهم فقراء إلى الله تعالى.

(7) باب قرطاجنة، ربما يكون أحد أبواب مدينة تونس، وقرطاجنة مدينة قديمة فيها الآثار وعجائب البنيان، وبينها وبين تونس عشرة أميال ومرساهما واحد، الروض المعطار، المصدر السابق، ص462، والقلاليين قد يكون أحد أسواق مدينة تونس القديمة.

يوم العيد عشية الأربعاء، أتينا للزاوية، فحضرنا بها الذكر، وفي يوم الجمعة كذلك.

وفي ضحى السبت أتينا لدار الشيخ رضي الله عنه، ودخلنا لبيته، وأوقفه بعض الإخوان لمعانقتنا، فعانقني وضمني إليه، وأجلسني فوق سريره وصافحني وناولني السبحة، ولقنني الذكر، ودعا لي، وأجاز لي، وأوصاني وذاكرني بمحضر جمع من الإخوان، ويد الجاوش فوق رأسي، ولقن البوني[1] وصافحه، ودعا له، وقال: أوصيك به، وأعلمك أنه شيخ الإنشاد والفن وأميره ولا يد تكون فيه أعلى من يده.

ولما أردنا الخروج من البيت قال: أنت لا بد لك من الرجوع في البحر وأوصيك أنك لا تقرأ في البحر حزب سبحان الدائم[2]، لأن البحر يكبر عند قراءته غاية الكبر، وذلك مكاشفة منه بما وقع لنا بالبحر، لأننا قرأنا في تلك الليلة الحزب[3] إلخ ما ذكره من الأمور، انتهى.

---

(1) اسمه الشيخ علي البوني، كان مرافقاً للشيخ في رحلته، وهو كما اتضح من الرحلة أنه كان منشداً جيداً للمدائح والأذكار، وقد زكاه الشيخ علي الشريف أثناء الرحلة، وكان معهما شخص آخر هو الشيخ يوسف معلم، ورد اسمه في رواية الشيخ سالم ضرغام فقط.

(2) حزب سبحان الدائم، ويسمى أحياناً بحزب التوحيد، وهو من أول الأوراد التي تذكر في الزوايا العيساوية، وهو في أوله للشيخ محمد بن سليمان الجزولي رضي الله عنه، قال عنه الشيخ محمد المسعودي: هذا الحزب المبارك من جملة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وهناك إضافات على صيغته من علماء آخرين، يراجع كتاب الشيخ الكامل: محمد بن عيسى، تأليف الأستاذ أحمد القطعاني، ص171 ـ 184، نشر سنة 1992م.

(3) أكد هذه الرواية أيضاً الشيخ محمد زغوان في رحلته للحج التي كانت بحراً، حيث قال: ثم شرعت أنا والشيخ مختار بن رجب في تخميس الهمزية، فاعترض علينا بعض الجماعة، وقال: تريدون أن يهيج علينا البحر كالليلة البارحة، فإن قراءة الهمزية والبردة تهيج البحر وتقوي تياره، فقلنا لهم: ما سمعنا بأنها تهيج البحر، إنما الذي يهيج البحر حقيقة هو قراءة حزب القطب الغوث سيدي محمد بن عيسى، قدس سره، فقد رأيت في تقاييد للأستاذ سيدي محمد المسعودي رحمه الله ما يفيد أنه يهيج البحر، كما هو مجرب مشهور، النفحات القدسية في الرحلة الحجازية، المصدر السابق، ص12.

كتبه الفقير محمد سعيد ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد المسعودي الصيدي، غفر الله ذنوب الجميع.

انتهت الرحلة، وكما يلاحظ أنها كانت مختصرة جداً، رغم طول المدة التي مكثها في عدة حواضر، جربة، صفاقس، تونس، وقد بدأت من 19 شعبان إلى منتصف شوال تقريباً، وما كتب عنها سوى صفحتين فقط، وتذكر المصادر إلى أنه بعد وفاة الشيخ علي قاسم الشريف سنة 1265هـ، أصبح الشيخ محمد المسعودي خليفته على الطريقة العيساوية وصارت طرابلس به قبلة طالبيها[1].

وبعد هذه الحياة الحافلة بالعطاء والرحلة، والتلقي عن العلماء والشيوخ والمساهمة في مسيرة العلم بهذه البلاد، تدريساً وتأليفاً، وتربية للمريدين، انتقل الشيخ محمد المسعودي إلى رحمة الله في فاتح شهر رمضان سنة 1288هـ، توافق 14/ 12/ 1871ف، فقد تم اغتياله بإطلاق النار عليه قبيل فجر تلك الليلة، فمات شهيداً رحمة الله عليه، ودفن بضريح جده الشيخ الصيد بقرية الهنشير شرقي طرابلس[2] ولم تذكر المصادر سبب ذلك، إلا أن المعروف من سيرته أنه كان يناصر المظلومين ويقف معهم، ويتصدى لمن ظلمهم من حكام ذلك الزمان فليس من المستبعد قيام أحدهم بتدبير هذا الاغتيال، رحم الله الشيخ وأسكنه فسيح جناته، فحياته كانت حافلة بالأحداث وتستحق البحث والدراسة.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

(1) حراس العقيدة، المصدر السابق، ص121.

(2) ذكر الرواية تفصيلاً الشيخ محمد زغوان في رحلته، النفحات القدسية، المصدر السابق، ص15، أما الأستاذ أحمد النائب فقد ذكر وفاته شهيداً دون أن يذكر سبب الوفاة، نفحات النسرين والريحان، المصدر السابق، ص171.

المبحث العاشر

بين الفقهاء والمتصوفة
نماذج من تاريخ الحياة الفكرية في ليبيا[*]

❖ تمهيد:

إن تباين وجهات النظر بين بني الإنسان عموماً، يدل على وجود فكر إنساني يسعى إلى الوصول للمعرفة، ويعمل لتحقيق الغايات، وتحصيل الحاجات، والمسلمون مطالبون بأعمال الفكر والتدبر في الكون والمخلوقات وغيرها، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]، ويسعى البشر دائماً إلى الكمال، والكمال له مقاييس تختلف باختلاف العصور وباختلاف العلوم، فكل إنسان في هذا الوجود له مفهوم خاص للكمال، وهذا المفهوم ينبع من ثلاثة عناصر: تكوينه العلمي وخبرته وقدراته، البيئة التي تحيط به، ورغباته أو الهدف الذي يسعى إليه، ومن هنا يمكن فهم أي اختلاف في وجهات النظر بين طوائف البشر قديماً وحديثاً، ويبدو أنها جميعاً تتوقف على تلك العناصر: العلم، البيئة، الهدف.

(*) ورقة مقدمة للندوة العلمية بعنوان الطرق الصوفية في إفريقيا حاضرها ومستقبلها، عقدت في مدينة زليطن ليبيا، خلال الفترة من 17 ـ 15 ـ الحرث (نوفمبر) 2005ف.

(1) سورة الزمر، الآية: 9.

وعلى ذلك يمكن دراسة العلاقة بين الفقهاء وأهل التصوف، وما فيها من تباين أو توافق، مع الأخذ في الاعتبار خصوصيات كل بيئة يوجد بها فقهاء ومتصوفة فهناك بيئات وصل فيها الخلاف إلى درجة العداء المستحكم، حيث كفر بعضهم بعضاً، أو صدور أحكام بالموت ضد البعض الآخر، وهناك بيئات أخرى لم تصل إلى هذه الدرجة من العنف في هذه العلاقة، بل أخذ الخلاف شكل المساجلات والتعاليق، أو الكتابة في شكل مؤلفات، أو قصائد، أو رسائل، أو فتاوى، مما جعل هذا الخلاف يساهم في إثراء الحركة الفكرية، وهو ما تميزت به تلك العلاقة.

إن تاريخ التصوف في بلادنا يزخر بالروايات التي تدل على مواقف الفقهاء من أهل التصوف، فهذه البلاد لم تخل يوماً من متصوفة ومن علماء، منذ عهد صحابة رسول الله ﷺ، وحتى الوقت الحاضر، وقد ترك لنا هؤلاء جميعاً تراثاً ضخماً في مجال الفقه والعلم والتصوف، أغلبه لا يزال مخطوطاً، ويقع علينا واجب تحقيقه وتمحيصه ونشره، ومن ذلك المواقف والأدبيات التي صاحبت مساجلات الفقهاء والمتصوفة، فهي مجال خصب لدراسة مجال التفكير والمعرفة، والأدب الصوفي وما فيه من صور وأخيلة، إلى جانب قضايا الفقه وقواعده، التي يستدل بها كل طرف، وينتصر بها في موقفه، كل ذلك يكون مجالاً للعديد من الدراسات والبحوث لو انتبه إليها أهل العلم والبحث، وتفطن إليها المسؤولون عن الدراسات العليا في الجامعات الليبية.

إن التصوف يعود إلى مبادئ إسلامية سامية، تمسك بها سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم في ذلك، ويحدد ابن خلدون تلك المبادئ في العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، كان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة[1].

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص439، طبعة دار الشعب، القاهرة، د ـ ت.

يتضح من ذلك أن ابن خلدون يرى أن التصوف نشأ لأسباب اجتماعية فبعد تطور الدولة الإسلامية، ونموها بازدياد ديار الإسلام، وتوسع الفتوحات انصرف بعض الناس إلى المظاهر الدنيوية، وما فيها من ترف وأعراض ومكاسب، في الوقت الذي رغب فيه بعض الناس في الابتعاد عن تلك المظاهر، واتباع طريق السلف الصالح في الزهد والتقشف والخلوة، وكثرة العبادة والطاعات، فاعتمد الأولون على أحكام الشريعة الظاهرة، بينما تقيد الآخرون بالوجدان والمشاعر، ومن هنا نشأ الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة.

وصف الأستاذ أحمد أمين هذا الخلاف بأنه نكبة من النكبات والمصيبة العظمى، ويضيف في بيان سبب الخلاف: أن الإسلام في جوهره لم يكن يفرق بين الاثنين، بل يأمر بالأعمال الظاهرة، ويطلب إصلاح الباطن، ومراقبة الله في أدائها، فلما كثر الفقهاء وتغلغلوا في الفقه، رأيناهم يغالون في مراعاة الشعائر الظاهرة، من وضوء وصلاة وزكاة، ومتى تصح ومتى لا تصح دون التعرض للنية ومحاسبة الروح، ومن ناحية أخرى تغالى الصوفية في الأعمال النفسية والروحية، ولم يضغطوا ضغطاً كافياً على الأعمال الظاهرة، فكان هناك فقهاء صوفية، وعداء بين الفقه والتصوف[1].

إن ما ذكره الأستاذ أحمد أمين مع صحته، هو الصورة التي ظهر فيها الخلاف، وسببه انتصار كل فئة إلى ما تقول به، ومن هنا جاءت المغالاة، إلا أن ابن خلدون يرجع الخلاف إلى المنهج والغاية، فيقول: (غاية أهل العبادات من غير المتصوفة يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه في الأجزاء والامتثال، وهؤلاء ـ أي المتصوفة ـ يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجد، ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً، فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والتروك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات)[2].

---

(1) ظهر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، ص56/ 2، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ـ ط3.

(2) مقدمة ابن خلدون ـ المصدر السابق، ص440.

ذلك استعراض بسيط لجوهر التمايز بين الفقهاء والمتصوفة، والذي يرجع ـ من وجهة نظري ـ في البيئات التي يسود فيها التصوف السني السلفي كبلادنا[1] إلى المنهج في العبادة، أو ما يسميه المتصوفة الطريق إلى الوصول، فغاية المسلم غير المتصوف أن يؤدي العبادات كما أمره الله، وأن يجتنب النواهي التي نهى عنها الدين، ويكتفي بذلك، أما الصوفي فهو يرغب في المزيد من هذه الأشياء، فهو يؤدي العبادة ويجتنب النواهي، ولكنه يرغب في التقرب إلى الله عزّ وجل أي للوصول إلى مقام الإحسان، وهذا جانب يحتاج إلى بحث طويل وسوف نقتصر في هذه الورقات على بعض النماذج المختارة من تاريخ ليبيا الثقافي، لندلل بها على وجود هذا الخلاف، وأنه لم يرق إلى مستوى العداء كما حدث في بيئات أخرى، وإنما ظل في نطاق التصوف السني الإسلامي وساهم في الحركة الفكرية، ولن نستطيع أن نغطي تاريخ ليبيا بالكامل، وإنما نبدأ من القرن العاشر الهجري، لتميزه بوجود العديد من كبار المتصوفة، مع توفر المصادر والمراجع عنهم.

النموذج الأول

بين عبد السلام الأسمر والإمام محمد الحطاب

القرن العاشر الهجري

لقد سبقت الإشارة إلى حياة الشيخ عبد السلام بن سليم الفيتوري الملقب بالأسمر وآثاره في المبحث الثاني ملامح عن الطرق الصوفية في ليبيا، ويعتبر الشيخ من علماء ليبيا وكبار المتصوفة فيها، ولد في زليطن سنة 880هـ ودرس العلم على عدد من شيوخ بلده وخاصة في التوحيد والفقه واللغة العربية

(1) لمعرفة المزيد عن التصوف السني السلفي، يراجع كتاب دور التراث في تأكيد الأصالة، من تأليف الأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني ـ رحمه الله ـ ص106 ـ 140، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2000م.

والمنطق، وفي بداية أمره، لم يكن يميل إلى التصوف[1] لكنه انجذب إلى التصوف ورجاله، فأخذ الطريقة العروسية على الشيخ عبد الواحد الدكالي في مسلاته، وأنشأ زاوية بزليطن التحق بها العديد من الطلاب والمريدين وتطورت الطريقة على يديه حتى أصبحت تعرف بالطريقة السلامية أو الأسمرية[2] له بعض المؤلفات منها رسائله إلى مريده، والوصية الكبرى، توفي رحمه الله سنة 981هـ ودفن بزاويته بزليطن[3].

أما الإمام الحطاب، فهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني الشهير بالحطاب، ولد بمكة المكرمة بتاريخ 18 رمضان سنة 902هـ، وبعد حفظه لكتاب الله الكريم بدأ تعليمه على يد والده الحطاب الكبير، ثم درس على علماء الحجاز ومصر، وقد ساعدته تلك البيئة العلمية على التضلع في الفقه والعلوم، حتى أصبح ذا مكانة مرموقة، واعتبر من أكبر أئمة المالكية في عصره وتولى رئاسة المذهب المالكي بالحجاز، وتشهد له جميع المصادر بعلو الرواية ورسوخ الدراية بأصول الفقه المالكي ودقائقه، وسعة الإحاطة بنصوصه، واستيعابه لأقوال الأئمة من عهد الإمام مالك إلى جيل شيوخه، ترك مؤلفات عديدة تدل على طول باعه، وتوفي رحمه الله في 9 ربيع الثاني سنة 954هـ ودفن في مكة[4].

ذكر الشيخ عبد الكريم البرموني في كتابه روضة الأزهار المناقشة التي

(1) الوصية الكبرى، للشيخ عبد السلام الأسمر، ص102، نشر مكتبة إحياء الكتب العربية، طرابلس، 1378 ـ 1958م، الطبعة الأولى.

(2) يراجع المبحث الثاني، وفيه تفصيل حول الطرق الصوفية في ليبيا، ومن ضمنها الطريقة السلامية أو الأسمرية.

(3) له ترجمة في العديد من المصادر، منها المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لأحمد النائب الأنصاري، ص208، منشورات دار الفرجاني، طرابلس، ط2، وقد كتب عن الشيخ عبد السلام الأسمر عدة مؤلفات، منها كتاب روضة الأزهار لكريم الدين البرموني، مخطوط لم يحقق وقد اختصره محمد مخلوف في كتاب سماه مواهب الرحيم، وكتاب فتح العليم، لعبد السلام بن عثمان، مخطوط لم يحقق، كما ترجم له الشيخ الطاهر الزاوي في أعلام ليبيا، ص214 ـ 217.

(4) له ترجمة في العديد من المصادر، منها المنهل العذب، لأحمد النائب، ص194، وشجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، ص270/ 1، ونيل الابتهاج، ص592.

حصلت بين الإمام الحطاب والشيخ عبد السلام الأسمر، ذلك أن الإمام الحطاب كان يزور والده في تاجوراء، وكان قد وقع الإنكار من العلماء على الطوائف الذين يذكرون الله بلفظ الجلالة (الله) أو (هو) بصيغة الغائب، وهم وقوف يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال، وأحياناً يصاب أحدهم بالجذب فيصرع بين القوم، أو يأخذ في هز رأسه يميناً وشمالاً، ووصل إلى علم الحطاب أن عبد السلام الأسمر ممن يقوم بذلك، فحضر الحطاب لمقابلته في مسجد الناقة بطرابلس، فقال له منكراً عليه:

- يا عبد السلام، ذكروا لنا أنك تؤمّ الفقراء، وتقول معهم بلفظ الجلالة، فهذا ذكر غير مشكور، لأنه بدعة لم تنقل عن السلف، وأن الذاكر لا أجر له؟

- فقال له الشيخ عبد السلام: عمن نقلت هذا؟

- فقال: نقلته من جواب العزّ بن عبد السلام.

- فقال: يا محمد بن محمد، دعني في حالي، فهذه ساعة لا يسعني فيها إلا ربي.

- فلما سمع الإمام الحطاب ذلك، تحركت نفسه وامتلأ غيظاً وغضباً، وقال: ما هذا جواب، وما هذه طريقة الصالحين!!.

- فقال له الشيخ عبد السلام: انته عما أنت تقول، وإلا أطيرك بعلمك المحطب الذي أفنيت عمرك في تحطيبه، ولم تدرك له حقيقة[1].

وأشار الإمام الحطاب إلى مسألة الذكر بلفظ الجلالة، ورأي العز بن عبد السلام فيها، الذي استند إليه في المناقشة التي جرت بينه وبين الشيخ عبد السلام في أحد مؤلفاته حيث قال: وسئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن الرجل،

---

(1) روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار، للشيخ كريم الدين البرموني، مخطوط محفوظ بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، وفتح العلي الأكبر في سيرة سيدي عبد السلام الأسمر، للشيخ الطيب المصراتي، ص25.

يذكر فيقول: الله، الله، ويقتصر على ذلك، هل هو مثل قوله: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، وما أشبه ذلك أم لا؟، وإذا لم يكن بمثابته، فهل هو بدعة لم تنقل عن السلف الصالح أم لا؟

فأجاب: هذه بدعة لم تنقل عن الرسول، ولا عن أحد من السلف، وإنما يفعله الجهلة، والذكر المشروع لا بد أن يكون جملة اسمية، وهو مأخوذ من الكتاب والسنة، وأذكار الأنبياء، والخير كله في اتباع الرسول واتباع السلف الصالحين دون الأغبياء الجاهلين، انتهى[1].

تدلنا هذه المناقشة التي جرت بين هذين العالمين رحمهما الله تعالى، على الخلاف بين العلماء والمتصوفة في الطريقة التي يلجأ إليها للوصول والتقرب إلى الله تعالى، فالعلماء يرون أن الوصول لا يتم إلا بالعبادة التي شرعها الله، أما المتصوفة فلهم وسائلهم التي يرونها الموصلة لذلك، يفهم من استدلال الإمام الحطاب بقول العز بن عبد السلام، وهو الذي يوصف بسلطان العلماء، ومن جواب الشيخ عبد السلام الأسمر للإمام الحطاب: أفنيت عمرك في طلب العلم ولم تدرك له حقيقة، فكأنه يعني أن هناك حقائق لا تدرك بالعلم والفقه، وإنما تدرك بالوجدان والإحساس بالقلب، فلها طرق أخرى موصلة غير طريق العلْم.

ذلك ما يفهم من هذه المحاورة المختصرة، لأن الشيخ عبد السلام رجل موصوف بالعلم، يؤخذ ذلك من أقواله في الوصية الكبرى، منها قوله ينصح إخوانه: تفقهوا في الدين وتصوفوا، وقوله أيضاً: كل صوفي فقيه وليس العكس[2]، وإن كانت هذه المقولة لا يسلم بها على إطلاقها، كما أنه يسلم للفقهاء في بعض الأحيان، فعندما ذكر بعض المعلومات المتعلقة بالآخرة، وهي من الأمور الغيبية، قال في الوصية: إخواني: إذا ناقشكم بعض الفقهاء في هذا الأمر، وهو قيام الساعة، فالحق معهم، والشريعة تجري مجراها، والحق أحقّ

(1) مواهب الجليل، لشرح مختصر خليل، للإمام محمد الحطاب، ص290/ 6.

(2) الوصية الكبرى، المصدر السابق، ص69.

أن يتبع[1] ولكنه في أحيان أخرى لم يأبه بقول الفقهاء، فقد ورد في الوصية أن الفقيه سالم المباركي، بعد أن سمع كلام الشيخ عبد السلام في الغيبيات، قال: أنا أعلم أن عبد السلام كالكاهن يخبر بما لا يرى! فرد عليه مخاطباً إخوانه: ولولا كلام الفقيه سالم المباركي وغيرهم وإنكارهم علينا، لتكلمت لكم عن الآخرة وما يقع فيها[2] ولكن يجب أن لا تؤخذ هذه الأقوال على محمل الصحة، ذلك أن الوصية الكبرى المنسوبة إليه نشرت قديماً دون تحقيق أو تمحيص، وبالتالي يجب التدقيق في هذه الأقوال، والله أعلم.

النموذج الثاني

بين الشيخ محمد أبو راوي وبعض معاصريه

القرن الحادي عشر

•يعتبر الشيخ محمد أبو راوي بن محمد بن عمران ابن الشيخ عبد السلام الأسمر الطرابلسي من أعلام ليبيا وكبار علمائها، أخذ علومه عن فقهاء طرابلس وعن المغاربة الذين يمرون عليها، وهو من أكابر مدرسي مدرسة تاجوراء، التي أسسها مراد آغا عندما قدم إلى ليبيا سنة 957هـ لمساعدة أهلها في تحريرها من فرسان القديس يوحنا، ونظراً لمكانة الشيخ محمد أبو راوي العلمية سميت المدرسة باسمه، فيقال مدرسة أبو راوي، وهو عالم فلكي له مؤلفات في الفلك لم تحقق أو تطبع حتى الآن، ولم تحظ حياته وسيرته العلمية بالبحث والدراسة توفي في جزيرة جربة بتونس سنة 1088هـ[3].

ذكر تلميذه الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، وهو أيضاً من نسل الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري، أن الشيخ محمد أبو راوي كانت تربطه علاقة قوية مع الشيخ محمد بن ناصر الدرعي، وهو من علماء المغرب، ومن

---

(1) الوصية الكبرى، المصدر السابق، ص105.

(2) الوصية الكبرى، المصدر السابق، ص127.

(3) المنهل العذب، لأحمد النائب، ص178 ـ 250، شجرة النور الزكية، ص306/ 1.

كبار رجال التصوف بها[1] وكان الشيخ أبو راوي يتيمم في أكثر أوقاته، فحسده بعض الناس على قربه من الشيخ ابن ناصر، فكتبوا سؤالاً للشيخ ابن ناصر، أثناء زيارته لطرابلس سنة 1076هـ، حول صحة التيمم مع القدرة على استعمال الماء؟ تقول الرواية، إن الشيخ ابن ناصر أعطى السؤال لأحد تلاميذه، فأجاب عنه بالآتي: لا تصح صلاة القادر على مسّ الماء، الواجد له بالتيمم، وعلى فاعل ذلك الإعادة أبداً، ولا يكفر به، والأمر واضح.

ولما علم الشيخ ابن ناصر بأن السؤال متعلق بالشيخ محمد أبو راوي كتب على الجواب، غير محرر، وتحريره أن المرء فقيه نفسه، وهو أعلم بها من كل أحد، فقول المسلم المذكور: يضرني الوضوء، يقبل منه ولا يضر في ذلك عدم ظهور عذر مبيح لنا، لأن الأعذار أسرار، كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن سبب تخلفه عن المسجد النبوي، فقال: للناس أعذار، وفي الأعذار أسرار. . . . ، واستمر الشيخ ابن ناصر يفند فتيا تلميذه، مستنداً في ذلك على وجوب حسن الظن بالناس، وتصديق من يقول: لي عذر في ذلك، ذكر التاجوري هذه القصة في كتابه فتح العليم وفي كتاب تذييل المعيار باب التيمم[2].

يتبين من هذه القصة أن الذي وجه السؤال كان يهدف فيما يبدو إلى التقليل من مكانة الشيخ أبو راوي باعتباره من أعلام التصوف، وأنه لا يتبع في عبادته ما نص عليه الشرع في قواعد الطهارة، فكان ردّ تلميذ الشيخ محمد بن ناصر وفقاً لأحكام الشريعة المقررة، في كتب الفقه، وبالتالي أوجب عليه إعادة الصلاة، لكن شيخه اعتبر صلاته صحيحة لوجود العذر لديه، وأنه ليس بالضرورة أن يبين عذره، وخاصة إذا كان من أهل العلم الذي يعلم أن الواجد

(1) للشيخ محمد بن ناصر الدرعي مجموعة فتاوى، نقل منها الشيخ عبد السلام بن عثمان في كتابه تذييل المعيار، كما نقل عنه عدة أقوال أثناء لقائهما في طرابلس، طبعت فتاوى ابن ناصر طبعة حجرية في المغرب، باسم الأجوبة الناصرية.

(2) تذييل المعيار، مخطوط ص51 و52ك. وفتح العليم، مخطوط.

قادر على مسّ الماء، لا يباح له التيمم، وهذه القصة تدل على تباين وجهات النظر بين الفقهاء والمتصوفة.

النموذج الثالث

بين المؤرخ محمد بن غلبون والصوفي عبد السلام التاجوري وتلميذه الشيخ محمد النعاس القرن الثاني عشر

يعود الفضل في كتابة تاريخ ليبيا إلى العالم الجليل أبي عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، وهو مواليد مصراتة، ومن أسرة تنتمي للعلم، تلقى العلم على شيوخ طرابلس، ثم رحل إلى الأزهر الشريف حيث أخذ العلم على عدّة علماء ثم عاد إلى بلده سنة 1133هـ، قام بتدريس التفسير والفقه والحديث وغيرها من العلوم في مصراتة، كان مقرباً من حاكم البلاد، وكانت له مواقف ضد الفساد وعرفْ بعدم رضاه على بعض تصرفات الطرق الصوفية وكبار رجالها، ونقده لبعض العلماء، لم تذكر المصادر التي ترجمت له تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته ألف كتاب التذكار فيمن ملك ليبيا ومن كان بها من الأخيار[1].

أما الشيخ التاجوري، فهو العالم الجليل عبد السلام بن عثمان بن عزّ الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأسمر، الشهير بالشيخ عبد السلام العالم التاجوري، ولد في تاجوراء عام 1058هـ، بدأ تعليمه في زاوية مكرم حيث تلقى مبادئ الكتابة ثم تتلمذ على عدة شيوخ بها، والتحق بمدرسة تاجوراء حيث درس على الشيخ محمد أبو راوي بن محمد بن عمران، بعد ذلك ذهب إلى مدينة طرابلس حيث تلقى العلم على مفتي البلاد الشيخ أحمد المكني (1042 ـ 1100هـ) وعلى العالم الكبير المفتي الشيخ محمد بن محمد بن مقيل (1054 ـ

(1) مقدمة كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار، لابن غلبون، تحقيق الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، كما ترجم له في كتابه أعلام ليبيا، ص344 ـ 346، ومؤرخون من ليبيا، للأستاذ علي مصطفى المصراتي، ص119 ـ 126.

1100هـ) وله عدة لقاءات مع علماء المغرب ومصر، ترك لنا مجموعة من المؤلفات تدل على مكانته العلمية، توفي ليلة الثلاثاء 5 شوال سنة 1139هـ، ودفن بتاجوراء[1].

أما تلميذه فهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الحفيظ النعاس، ولد بتاجوراء، ونشأ بها على الاستقامة والصلاح وطلب العلم، قرأ على أفاضل عصره، وتتلمذ على الشيخ عبد السلام التاجوري، برع في العلوم الشرعية ونال حظّاً وافراً من علوم التصوف، وكان من كبار الفقهاء المحدثين ومن الحفاظ الثقات، قام بالتدريس في مدرسة تاجوراء، وانتفع به خلق كثير، توفي رحمه الله سنة 1177هـ[2].

لم يكن العالم والمؤرخ ابن غلبون متفقاً مع الشيخ عبد السلام التاجوري وتلميذه محمد النعاس، فهو لم يكن راضياً عن التاجوري، وعلى مؤلفاته، ومع ذلك ترجم له في كتابه التذكار ووصفه بالعالم، حيث قال: وممن كان بها من العلماء من أهلها الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري...، ألف كتاباً في الفتاوى سماه (التذييل) زعم أنه ذيل به المعيار، وجمع فيه من الغثّ والسمين شيئاً لم يسبق به، وكتاباً سماه (فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم) تعرض فيه لما في البلد من صالحين، واعتمد في وفاتهم وخصائصهم على أخبار عوام المتفقرة...، كان يميل إلى نصرة الطائفة المتفقرة، ويحتج لبدعهم بما لا يشك في بطلانه من له أدنى مسكة من عقل، وإياه اعتمدت الفرقة المتفقرة، حتى أنهم إن احتج عليهم بحدث أو آية، عارضوا بالشيخ المذكور[3].

(1) ترجم لنفسه في خاتمة كتابه فتح العليم، مخطوط، كما ترجم له ابن غلبون في التذكار، ص237، وأحمد النائب في المنهل العذب، ص290، وشجرة النور الزكية، ص318/ 1.

(2) ترجم له ابن غلبون في التذكار، ص264، وأحمد النائب في المنهل العذب، ص297، والشيخ الطاهر الزاوي في أعلام ليبيا، ص349.

(3) التذكار، لابن غلبون، ص237.

ينحصر النقد الذي وجهه ابن غلبون للشيخ عبد السلام التاجوري في كتابيه تذييل المعيار، وكتابه فتح العليم، فأما الكتاب الأول، فقال عنه: جمع فيه من الغثّ والسمين شيئاً لم يسبق به ويخيل إليّ أن الذي يقصده ابن غلبون هي المسائل المتعلقة بالتصوف التي ذكرها المؤلف في بداية الكتاب، وهي إجابات عن أسئلة وجّهت للشيخ محمد بن ناصر الدرعي، أحد شيوخ المؤلف وفيها معلومات لا يصدقها العالم الفقيه، منها على سبيل المثال: [وسئل عمن عرف اسم معروف الكرخي، واسم طيفور بن عيسى، هل يدخل الجنة أم لا؟ فأجاب: من عرف ذلك كله، فله الجنة][1]، ومسائل أخرى على هذا المنوال فهذه الإجابات لا تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية، وإن كان المتصوفة لهم فيها مشارب أخرى، ولكن مؤلف الكتاب، لم ينسبها لنفسه، بل نقلها عن عالم كبير من علماء المغرب، وهي مسائل قليلة جداً بالمقارنة مع الفتاوى القيمة التي وردتْ في الكتاب، وخاصة لعلماء ليبيا أمثال الشيخ محمد بن مقيل، والشيخ أحمد المكني، والشيخ محمد بن مساهل وغيرهم[2] وهذا النقد يدخل ضمن تعارض وجهات النظر بين الفقهاء والمتصوفة.

أما الشيخ محمد النعاس، تلميذ الشيخ عبد السلام التاجوري، فقد جرت مناظرة بينه وبين الشيخ محمد بن غلبون، الذي ذكرها بنصها الكامل في كتابه التذكار، وفيها أنكر على الشيخ النعاس اجتماع المتفقرة ليلتي الاثنين والجمعة للذكر، وإجبار الأتباع على حضورها كرهاً وأخذ المال ممن غاب عنها، ولم يرد بها نص شرعي، وجواب الشيخ النعاس أنها مأخوذة على الشيوخ، وليس له فيها سند شرعي أو قول إمام، ثم قال (وكان آخر كلامه، هذه طريقة مشايخي لا

---

(1) الأجوبة الناصرية، ص97، طبعة حجرية، ونقلها عبد السلام بن عثمان في تذييل المعيار، ص17 ك.

(2) يعتبر كتاب تذييل المعيار ـ إلى جانب كونه كتاباً في الفتاوى ـ مصدراً غنياً بالمعلومات عن بعض فقهاء ليبيا الذين نقل فتاواهم، وهو ما زال مخطوطاً، أقوم حالياً ـ بعون الله وتوفيقه ـ بتحقيقه لإظهاره للمكتبة العربية، وأرجو من الله تعالى التوفيق (تم الآن نشر الكتاب من قبل جمعية الدعوة الإسلامية).

يسعني تركها كائنة ما كانت) وعلق عليها ابن غلبون: فمن يومئذ زال ما كان عندي من إنصافه واتباعه الحقّ، هدانا الله وإياه إلى الصراط المستقيم[1]، وهي مناقشة طويلة تبين بجلاء عدم توافق فقهاء الشريعة مع ما يقوم به بعض المتصوفة، كما هو المثال الذي ورد في هذه الرواية.

النموذج الرابع

بين الشيخ محمد بن أحمد العكاري والشيخ عثمان مصطفى بن بادي القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر

أما الصوفي فهو العارف بالله تعالى الأستاذ محمد بن أحمد العكاري، كان عالماً فاضلاً جليلاً وزاهداً ورعاً، ولد سنة 1240هـ بالهنشير ساحل طرابلس وحفظ القرآن الكريم، ثم شرع في أخذ العلم على الشيخ أحمد النعاس، وغيره من علماء طرابلس، فأخذ عنهم التوحيد والفقه وعلم العربية والأدب وعلم الفرائض، والحديث والتفسير، ثم انتقل إلى الأزهر، بعدها عاد إلى وطنه ليساهم في نشر العلم، وهو من كبار شيوخ الطريقة القادرية، أخذ عنه الكثير من شيوخها منهم الشيخ محمد الأمين العالم[2] وللشيخ العكاري مؤلفات عديدة على طريقة النظم، منها الياقوتة الفريدة في الستة والستين عقيدة، ومنظومات في الحج والزكاة.

ومنظومة في الفرائض اختصر فيها الرحبية، ومنظومة في أسماء الله الحسنى، وغيرها، توفي رحمه الله في طرابلس في 4 جمادى الأولى سنة 1313هـ ودفن بمقبرة الهنشير[3].

---

(1) التذكار، لابن غلبون، ص239.

(2) تراجم ليبية، تأليف د. جمعة محمود الزريقي، ص120، ط أولى، طرابلس، 1998م.

(3) نفحات النسرين، لأحمد النائب، ص192 ـ 195، دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص328 ـ 329، تراجم ليبية، المصدر السابق، ص120.

والفقيه: هو العالم الجليل والشاعر البليغ، الشيخ عثمان بن مصطفى بادي، ولد في مصراتة في أواسط القرن الثالث عشر، كان عالماً فاضلاً لغوياً بليغاً، قرأ في بلده مبادئ التوحيد والفقه والنحو والصرف على الشيخ محمد السعداوي، ثم ارتحل لمصر وتفقه على علماء الأزهر، وأخذ العديد من فنون العلم، ثم رجع إلى مصراتة وأسس له الجامع الذي تولى فيه الإمامة والخطابة والوعظ والإرشاد وإلقاء الدروس فاستفاد منه العديد من أهل البلاد وغيرهم كان أغلب إنتاجه من الشعر، فله العديد من المنظومات والتخميسات وغيرها قال الشيخ محمد مفتاح قريو: بقي الشيخ عثمان حيّاً إلى عام عشرين من القرن الرابع عشر، ولم يطل به الوقت حتى توفي في آخر العهد العثماني الثاني ودفن في المسجد الذي كان فيه إماماً[1].

وصل إلى علم الشيخ بادي أن الشيخ محمد العكاري الطرابلسي أفتى بإباحة الدفوف والمزامير لطائفة المتفقرة، أي اتباع الطرق الصوفية، فرأى في ذلك مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية، فوضع في ذلك نظماً ينتقد فيه هذه الفتوى، جاء فيه:

يقول راجي الفوز في التناد ... عثمان نجل مصطفى بن بادي
الحمد لله على الإسلام ... ثم صلاته مع السلام
على النبي كامل الصفات ... وآله وصحبه الهداة
وبعد فاعلم هذه رسالة ... في الرد عمن تبع الضلالة
وهي إذا فهمتها يا قاري ... رد على محمد العكاري
حيث أباح الدف والمزمارا ... والطبل والطنبور والأوتارا
إذ كلها ممنوعة يا صاح ... عند ذوي التحقيق والنجاح

(1) تراجم أعيان العلماء من أبناء مصراتة القدماء، للشيخ محمد مفتاح قريو، ص119، الطبعة الأولى، مصر، 1970م.

جميعها زيادة في الدين | ولم ترد في شرع ذي التبيين
إذ كل بدعة أتت ضلالة | قد قال ذاك خاتم الرسالة
تكون مع صاحبها في النار | فأصغ إلى قول النبي المختار[1]

يتضح من ذلك اختلاف وجهات النظر بين عالمين جليلين، كلاهما درس في الأزهر الشريف، وله باع طويل في علوم الشريعة والدين، ولكن أحدهما يسلك طريق التصوف، فأفتى بجواز استعمال آلات الطرب في المدائح والأذكار، رغم أن الشيخ محمد العكاري من أتباع الطريقة القادرية التي لا تستعمل لتلك الوسائل، ولكنه ـ ربما ـ جامل بها أصحاب الطرق الأخرى ومع ذلك لم يسلم من النقد، فانبرى له قرينه من مصراتة ليرد عليه مستنداً في ذلك لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ رحم الله الجميع.

النموذج الخامس

بين الأستاذ أحمد القطعاني والشيخ أبو بكر الجزائري أوائل القرن الخامس عشر

يعتبر الأستاذ أحمد سالم كريم القطعاني من علماء ليبيا، ومن كبار رجال التصوف المعاصرين وهو من مدينة درنة، ومن أتباع الطريقة العيساوية، وهو شيخ للعديد من الزوايا الصوفية العيساوية المنتشرة في ربوع ليبيا، وهو مجتهد في الطريقة، وفي مجال التصوف، فقد أدخل وسائل تعليمية وتربوية حديثة في السلوك الصوفي، لتكون الطرق الصوفية مواكبة للعصر دون أن تفقد أساسها الصوفي، أو منهاجها التربوي، وسماتها في الزهد والتواضع وحسن الخلق، وله مؤلفات في مجال التصوف والعقيدة والتراجم والتاريخ تقارب الثلاثين كتاباً حتى الآن، وفقه الله وسدد خطاه.

---

(1) تراجم أعيان العلماء، المصدر السابق، ص120.

أما الشيخ أبو بكر جابر الجزائري، فهو مدرس بالجامعة الإسلامية وواعظ بالمسجد النبوي الشريف، وهو مؤلف كتاب إلى التصوف يا عباد الله طبع سنة 1408هـ ـ 1987م، وله كتاب آخر أسماه (منهاج المسلم) وكتاب (عقيدة المؤمن)[1].

وضع الشيخ أبو بكر الجزائري كتابه (إلى التصوف يا عباد الله) للتصدي للتصوف والطرق الصوفية، بدأه بالقول: لقد ظهرت الدعوة إلى التصوف من جديد وبعد أن ظن المصلحون أنها قد مضت فلا ترجع، ومـاتت فلم تنشر وذلك بعد أن أظهروا زيفها وكشفوا عوارها، وأزاحوا ستارها، بما تخفي وراءها من جيوش الخراب والدمار، تلك الجيوش الكافرة الفاجرة، التي ما فتئت تضرب في جسم أمة الإسلام، حتى مزقته[2]. . .، ثم أشار إلى أن الطرق الصوفية بدأت في نشاطها، حيث عقدت المؤتمرات، وفتحت الزوايا، وألفت الكتُب في مجال التصوف، وأنهم ـ أي المتصوفة ـ بدؤوا الطعن في الدعوة الإصلاحية السلفية، التي قادها في الشام الشيخ أحمد بن تيمية، وفي الديار النجدية، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم بدأ في سرد بعض الأقوال والأفعال المنسوبة لأهل التصوف، والتي وردت في الكتب، ليناقشها ويدلل بها على فساد التصوف والطرق الصوفية، وينتهي إلى أن التصوف ليس من الإسلام في شيء فإن كان من الإسلام فحسبنا الإسلام، وإن لم يكن من الإسلام، فلا حاجة لنا به[3].

وقف الأستاذ أحمد القطعاني على هذا الكتاب، فتناوله بالدراسة والبحث

---

(1) ذلك ما كتب على غلاف الكتاب، الذي طبع في الاسكندرية، دار البصيرة، 1990م، وبقية المعلومات من كتاب الحجة المؤتاة في الرد على صاحب كتاب إلى التصوف يا عباد الله، للأستاذ أحمد القطعاني، ص17 الطبعة الثانية، القاهرة، 1992م.

(2) كتاب إلى التصوف يا عباد الله، للشيخ أبو بكر جابر الجزائري، ص5، دار البصيرة، مصر، 1990م.

(3) إلى التصوف يا عباد الله، المصدر السابق، ص12.

بقصد الرد عليه، فصنف عليه كتاباً أسماه (الحجة المؤتاة في الرد على صاحب كتاب التصوف يا عباد الله) أشار في البداية إلى أن مؤلف كتاب إلى التصوف يا عباد الله، جمع وحدّد مسائل النزاع والخلاف الذي يراه هو وقبيله في التصوف وبوبها، وذكر أدلتهم على خطئها، فردنا عليه هو ردّ على كل من يرى برأيه، ولا أظن أن هناك ما يعيبونه على التصوف بزعمهم غير ما ذكر، فبينا خطأه من صوابه فيما ذهب إليه[1].

تناول الأستاذ القطعاني نصوص الكتاب المردود عليه، بعد أن مهد له بمقدمة في علم التصوف وقيمته، وظهور الفرق والأحزاب، وما يواجهه الإسلام من تحديات، وبعض القضايا التي أثارها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ثم لمحة عن كتاب الشيخ الجزائري، وقد اتبع في رده وضع نص الكتاب المردود عليه في إطار، ليتميز عن الرد، ثم يتناوله بالتحليل والشرح وبيان عدم صحة ما يدعيه من أفكار أو أفعال تنسب للمتصوفة، وهم أبرياء منها، وأن أغلب ما كتب عنهم، هو دسّ عليهم، وهناك من الأمور ما يقع فيها اللبس بعدم فهم قصد المتصوفة من تلك الأقوال، كل ذلك بأسلوب مبسط، مع اتباع طريقة العلماء في الردّ الموضوعي المتجرد عن الأغراض، المستند على الأدلة المشبع بالاحترام والتوقير رغم اختلاف وجهات النظر، ولا يمكن في هذه العجالة جلب كل ما قيل في الأصل أو الرد، وإنما القصد هو بيان ما يجلبه ذلك التباين من نشاط في مجال الحركة الفكرية، ذلك أن كتاب الشيخ القطعاني لقي مجالاً فسيحاً داخل ليبيا وخارجها، حتى أنه طبع أكثر من مرة.

اقتصر ردّ الأستاذ القطعاني على ما جاء في الكتاب إلى صفحة 109 فقط وقد أشار إلى ذلك في مقدمة الحجة المؤتاة إلى أن ما بعد ذلك لم يذكر فيه المصنف إلا بعض المأثورات عن النبي ﷺ، والأذكار تحت عنوان (الإسلام هو

---

(1) الحجة المؤتاة، المصدر السابق، ص18.

البديل) ونحن نشجع كل من اهتم بها وواظب عليها[1]، وفيه ذكر الشيخ الجزائري أن الإسلام هو البديل عن التصوف المبتدع المضلل به وهذه حقيقته أن للإسلام حقيقة واحدة لا تتعدد، وهي إيمان العبد بالله تعالى رباً وإلهاً وإسلام قلبه وجوارحه له، مع مجاهدة وصبر ومراقبة وافتقار، ثم أخذ يشرح هذه الأمور تفصيلاً، لينتهي إلى ذكر بعض الأوراد النبوية لتكون بديلاً عن الأوراد الصوفية[2] وهكذا ينتهي الشيخ الجزائري في محاربته للتصوف إلى التصوف، الذي حقيقته هي نفس ما ذكره عن الإسلام، وأن الأوراد التي ذكرها هي ما يتناوله الصوفيون في طرقهم، وأختم بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[3] صدق الله العظيم.

❖ الخاتمة:

• تنتهي الورقة بخاتمة فيها بعض الملامح المستقاة من النماذج المذكورة عن العلاقة بين الفقهاء والمتصوفة، فكانت على النحو التالي:

1 ـ يتضح من النماذج المختارة، أن كلاً من الفقهاء والمتصوفة، هم من كبار العلماء الذين درسوا العلم، وتفقهوا في الدين، وأنهم من الذين أفنوا عمرهم في التحصيل والتلقي عن كبار العلماء، ثم كرسوا حياتهم للتدريس والتعليم وتربية النشء، وقاموا بالتأليف في علوم شتى.

2 ـ إن الخلاف بينهم لم يكن على الدين الإسلامي وأساسياته، وعلى ما عرف منه بالضرورة، وإنما في الطريق الموصل إلى الله تعالى، فاكتفى الفقهاء بما أوجبه الله من عبادات واتباع أوامره واجتناب نواهيه، بينما رغب المتصوفة في التقرب إلى الله تعالى بأكثر من ذلك.

---

(1) الحجة المؤتاة، المصدر السابق، ص17.

(2) إلى التصوف يا عباد الله، المصدر السابق، ص123 ـ 141.

(3) سورة النحل، الآية: 125.

3 ـ لم يحدث في بلادنا الخلاف الذي وقع بين الفقهاء ورجال التصوف في بيئات أخرى، التي وصل فيها الأمر إلى تكفير بعضهم بعضاً، أو الإفتاء بقتل المخالف للآخر، فقد تميز التصوف في ليبيا بالتصوف السني السلفي، ولم يظهر فيها متصوفة لهم أفكار إشراقية تقول بالحلول أو الاتحاد، أو الفناء، ووحدة الوجود، وغيرها من الأفكار الفلسفية.

4 ـ لما كان الأمر لا يعدو عن اختلاف وجهات النظر، ولم يرق إلى التعصب والعداء فقد أنتج لنا نصوصاً أدبية، ومقالات إسلامية، أسهمت إلى حدّ ما في تنشيط الحركة الفكرية، من خلال الأفكار الصوفية، وتراجم العلماء ودورهم في المجتمع الذي عاشوا فيه، وما تركوه من تراث هو مجال خصب للبحث والدراسة، يمكن أن يستخلص منه فوائد كثيرة.

5 ـ ليس كل ما كتب عن التصوف قديماً، وخاصة كتب المناقب والتراجم والسير، يقتصر على الغيبيات والكرامات وما إليها، وإنما فيها مباحث واجتهادات فقهية، ومناقشات ومساجلات، وروايات تاريخية، وتراجم أعلام لا نعلم عنهم شيئاً في السابق، فحرياً بنا أن نعكف على دراسة هذا التراث الصوفي الكبير، ونستخلص منه كل ما هو مفيد في البحْث العلمي، فمجالاته متعددة منها الفقه والتاريخ والأدب والسير وغيرها.

والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

المبحث الحادي عشر

أسئلة وأجوبة عن التصوف
المجموعة الأولى

(المجموعة الأولى)

أسئلة عن التصوف مقدمة من الأستاذ الدكتور باراتوري ألبيرتو الأستاذ في جامعة تريفيزا ـ إيطاليا، إلى الأستاذ علي الصادق الحسنين الباحث في العلوم الاجتماعية والتاريخية:

وبناء على طلبه أجاب عنها
الدكتور جمعة محمود الزريقي
باحث في الدراسات الإسلامية

س (1) أين توجد الصوفية؟

إذا كان المقصود بالسؤال الطرق الصوفية؟، فهي موجودة في أغلب البلدان الإسلامية العربية وغيرها، ولها أماكن خاصة تسمى: الزوايا، أو الخانقاه، أو الرباط، وما إليها، وهذه الأماكن يجتمعون فيها خلال أيام معينة في الأسبوع، للذكر والتسبيح وتلاوة القرآن، ولدراسة الحديث، أو لتلاوة الأوراد والوظائف والمدائح، ولها في خلال السنة مناسبات دينية يقومون بإحيائها ويحرصون على حضورها.

أما إذا كان المقصود من السؤال الفكر الصوفي، أو التراث المعرفي للتصوف، فهو موجود في العديد من الكتب والمخطوطات القديمة والمؤلفات الحديثة، وما زال التأليف في هذه المعارف مستمراً في الإصدار، كما يتم إحياء كتب التصوف القديمة، بإعادة تحقيقها وطبعها من جديد، وفيها الكثير من المعلومات حول الفكر الصوفي المتعلق بمدارسه المختلفة.

س(2) ـ (أ) كيف يظهر الصوفي؟

يتم ذلك بالانخراط في إحدى الطرق الصوفية، أو الانتساب إلى إحدى الزوايا، مع التزامه بتعاليمها وأورادها، بعد أن يبدي استعداده للقيام بكل ما يتطلبه الأمر للولوج في الطريقة التي يختارها، ويكون في البداية بالحضور إلى الزاوية، أو المسجد الملحقة به أو القريبة منه، أو المكان المخصص لاجتماع أهل الطريقة، والاستماع إلى شيخ الطريقة، وحضور مجالسه ومعرفة الأصول التي تقوم عليها طريقته، وحضور مجالس الذكر والاحتفالات الدينية، وعندما يأنس الشيخ منه استجابة والتزاماً بالأخلاق الفاضلة، والتقيد بالتعاليم الدينية وأخصها التوبة النصوحة، والابتعاد عن مباهج الحياة المترفة والزهد في حياة الترف والبذخ، يقوم الشيخ بتلقينه وأخذ العهد منه، ويرشده إلى أحكام الإسلام، ويفقهه في الدين، ويحثه على الالتزام بالأخلاق الفاضلة، ويتم ذلك بطقوس معينة خاصة بكل طريقة، إلا أنها لا تخالف أحكام الشريعة الإسلامية ومنذ أخذ العهد يصبح صوفياً ملتزماً بطريقته التي اختارها، قائماً بأورادها ووظائفها.

س (2) ـ (ب) كيف يقبله الناس؟

إن التصوف ليس غريباً عن البيئة الإسلامية، وبالتالي إذا انتسب الإنسان إلى طريقة صوفية، فلا يعد ذلك عيباً أو عاراً، بل شرفاً قد لا يناله غيره ممن لا يلتزم بمبادئ الإسلام ولا يتقيد بتعاليمه، أما الصوفي الجديد، فكل ما يجب

عليه ـ بعد ذلك ـ أن يتقيد بأخلاق المتصوفة، فيبتعد عن الأفعال والصفات التي لا تليق بالصوفي، كالكذب في الحديث والنميمة ولعب الورق، ناهيك عن شرب الخمر ولعب الميسر وغيرها من الأفعال التي حرمها الإسلام، لأن من شروط الانتساب إلى الطريقة الصوفية، هو التوبة الخالصة والالتزام بقواعد الإسلام وأحكامه.

س (2) ـ (ج) هل يعتبر التصوف ظاهرة غريبة عن الإسلام؟

لا يعتبر التصوف غريباً عن الإسلام، لأن المتصوفة هم من المسلمين ويلتزمون بكل ما يفرضه الشرع من أحكام، ولكنهم في مقام الإحسان، وهو التقرب إلى الله تعالى، وشعارهم [هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] وذلك يعني الزيادة في العبادة، وسلوك الطريق لتحقيق هذه الدرجة فالمسلم العادي يلتزم بمبادئ الإسلام، ويقوم بكل الواجبات المفروضة عليه: من صلاة وصيام وزكاة وحج إلا أن الصوفي يرغب في التقرب إلى الله أكثر من غيره، ليلتحق بمقام الإحسان، فيلجأ إلى سلوك معين يعتقد أنه المقرب إلى الله، وهذا السلوك هو الذي يعرف بالطريقة لتحقيق ذلك الهدف، يقول الشيخ الأمين العالم، وهو من أكابر متصوفة ليبيا (ت 1922ف) [الأقسام ثلاثة: هي الشريعة، والطريقة، والحقيقة، فالشريعة أقوال والطريقة أفعال، والحقيقة أحوال، فالشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهده، فالأفعال المجاهدة والمكابدة، والحقيقة الأخلاق والأذواق][1] ورغم اختلاف طرق التصوف، إلا أنها جميعاً تصب في تحقيق ذلك الهدف.

س (3) ـ (أ) ما هي الطرق التي ما برحت قائمة؟.

إن الطرق الصوفية التي ظهرت في العالم الإسلامي عديدة، ولا يمكن

---

(1) حاوي العقول إلى بلوغ المأمول، تأليف الشيخ أحمد بن محمد بن حمادي (ت 1948ف) تحقيق د. جمعة محمود الزريقي، ص38، نشر جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس.

حصرها على وجه التحديد، وما زالت هناك طرق جديدة تظهر بين الفينة والأخرى، وأغلب الطرق الصوفية القديمة في العالم العربي لا تزال قائمة حتى الآن، منها مثلاً: القادرية والعيساوية، والتيجانية، والدسوقية، والدرقاوية والرفاعية، والعروسية والمدنية، والمرغنية، والمهدية[1] وبعض هذه الطرق منبثقة عن بعضها البعض.

س (3) ـ (ب) كم يبلغ عدد مريديها؟.

لا يوجد حصر للمنتسبين لهذه الطرق، ولكنه عدد لا يستهان به من المنضمين في كل بلد إسلامي توجد به طرق صوفية.

س (4) ـ (أ) ما هو دور النساء في هذه الطرق؟

إذا كان المقصود هو انتساب النساء إلى الطرق الصوفية، فذلك أمر جائز، إذ لا يوجد ما يمنع من انتساب النساء للطريقة الصوفية التي تختارها، ومن ثم تتقيد بتعاليمها وتقوم بتطبيق أورادها ووظائفها وأذكارها، وقد عرف التاريخ الإسلامي ظهور العديد من المتصوفات المتبتلات في عبادة الله، وهن نساء صالحات ناسكات عابدات، ملتزمات بتعاليم الإسلام قولاً وعملاً، وأخص ذلك عدم الاختلاط بالرجال، إلا لمن وصلت إلى عمر كبير لم يخش معه حدوث الفتنة أو فساد في الأخلاق، وبالتالي فإن وضعهن يختلف عن وضع الرجال، وإنما يكون في أضيق الحدود حتى لا يتم الخروج عن تعاليم الإسلام، فدخول المرأة في الطرق الصوفية ليس محظوراً، وإنما يتم ذلك في حدود تعاليم الإسلام.

س (4) ـ (ب) هل يزرن أضرحة الأولياء؟

نعم، تزور النساء الأضرحة كما يزورها الرجال سواء، إلا أن ما جرت به العادة في هذه الأضرحة، أن يكون مكان دخول المرأة غير مكان دخول

---

(1) يراجع معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، د. إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط1، 1413 ـ 1993.

الرجال، بحيث لا يحدث الاختلاط الممنوع، ويكون لكل زائر أن يرى الضريح، ويقف أمامه في لحظة تأمل، أو للدعاء، دون أن يؤدي ذلك إلى الاختلاط، فإذا أمكن وضع الحواجز بهذه الطريقة، كان ذلك وإلا تخصص أوقات للرجال وأخرى للنساء، ومثال ذلك ما يتم في زيارة ضريح الشيخ عبد السلام الأسمر في زليطن ـ ليبيا، وزيارة ضريح الشيخ عبد الله بن حسون في مدينة سلا بالمغرب.

س (4) ـ (ج) هل يختلين في جماعات خاصة لأداء الصلاة؟

يجوز للمرأة أن تصلي منفردة، كما يجوز لها أن تؤدي الصلاة مع الجماعة من الرجال، بشرط أن تكون مع غيرها من النساء، منفصلة بعازل يمنع الرؤية فقط، سواء كن على جانب الرجال أو خلفهم، وكذلك يجوز لهن أن يقمن بزيارة الأضرحة مجتمعات أو منفردات، على النحو الموضح سابقاً.

س (5) ـ (أ) هل هناك أمثلة على صوفيين ما زالوا على قيد الحياة؟

إذا كان المقصود بالسؤال شيوخ التصوف، فيوجد منهم الكثير على قيد الحياة، وهم في كل زاوية صوفية، وفي مختلف أرجاء العالم الإسلامي، أما إذا قصد بالسؤال شيوخ الطريقة، فكل طريقة صوفية لها شيخ كبير يكون مرجعاً لأهل طريقته، وأهلاً لإجازة غيره من الشيوخ والمقدمين، وهذا الشيخ عادة ما يكون قد قطع شوطاً طويلاً في مجال التصوف، ووصل إلى درجة كبيرة من العلم ورسوخ قدمه في الطريق، وفي كل زاوية تجد شخصاً يتولى قيادتها يعرف بشيخ الزاوية، وعادة يكون من أكابر المتصوفة فيها.

س(5) ـ (ب) كيف يكون ظهورهم أم يفضلون الاختفاء؟

أعتقد أن السؤال هنا ينصرف إلى الأولياء، وليس كل المتصوفة، وتفسير الولي مختلف فيه بين الفقفهاء، وفقاً لمدارسهم الفقهية، فالولي في مفهوم التصوف السني السالف، هو أن الولاية تعني المحبة والتقرب [فالمراد بولي الله

العالم بالله تعالى، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته][1] وليس ما ذكره المستشرق الانجليزي Nicholson من أن المسلمين يطلقون اسم الولي على الرجل الذي وصل إلى مقام الفناء عن ذاته وإرادته، ويبقى بالإرادة الإلهية[2] فهذا المعنى إنما أخذ من غلاة الشيعة في وصفتهم لبعض أئمتهم، ولا ينصرف إلى الولي في مفهوم التصوف السني، والذي يوجد في مفهوم أهل التصوف أن الولي يكون مختفياً وليس ظاهراً لكل الناس، فهو أقرب إلى المريدين من غيرهم، وبالتالي فإن معرفته تكون صعبة للغاية، يقول الشيخ امحمد زغوان وهو من أكابر المتصوفة في ليبيا على الطريقة القادرية:

وأعلم بأن معرفة الولي ... أصعب ما تكون للذكي

إلا إذا أراد وصله إليه ... عرفه ودله عليه[3]

س (6) ـ (أ) ما هي الطبقات الثقافية المناوئة للحركة الصوفية؟

• ذكر المؤرخون أن بعض الفقهاء قديماً كانوا يعارضون دعوة المتصوفة بأن لديهم العلم الباطن، وغيرهم ـ وهم العلماء ـ إنما يأخذون بالعلم الظاهر فقط ولهذا نشأت مساجلات بين الفقهاء والمتصوفة، حفظ لنا التراث الإسلامي الشيء الكثير منه، وخاصة بين المتصوفة الذين يقولون بالفناء ووحدة الوجود والحلول، وغيرها من الأفكار الإشراقية، وهناك من الفقهاء من حاول الجمع بين الفقه والتصوف، واعتبرهما علماً واحداً يعود إلى علم الشريعة الواحد، إلا أن الفقه قائم على الرواية، أما التصوف فهو قائم على الدراية[4].

---

(1) يراجع كتاب قطر الولي على حديث الولي، للإمام الشوكاني، ص238، تحقيق وتقديم: د. إبراهيم جلال، دار الكتب الحديثة، مصر، 1377/ 1977.

(2) كتاب قطر الولي، المصدر السابق، ص76، والمستشرق نيكلسون (1868 ـ 1945) من أكبر المستشرقين الباحثين في مجال التصوف، يراجع موسوعة المستشرقين، للدكتور عبد الرحمن بدوي، ص415 ـ 417، دار العلم للملايين، فبراير، 1984.

(3) ألفية المواهب السنية في مناقب الحضرة الأمينية، للشيخ امحمد بن علي الشريف زغوان، (ت 1972)، ص8، مخطوط لدى أسرة المؤلف.

(4) دراسات في التصوف الإسلامي، د. محمد جلال شرف، ص18، دار النهضة العربية، بيروت، 1404 ـ 1984.

أما في الوقت الحاضر، فغالب الناس في المجتمعات الإسلامية لا يتعرضون للمتصوفة، فلا ينتقدونهم أو يعارضونهم، بل يتركوهم في سبيل حالهم، إلا إذا خرجوا عن قواعد التصوف السليم، ولكن بعض أفراد الطبقة المثقفة بالعلم الحديث، والمتشبعة غالباً بالمدارس الغربية تنتقد الطرق الصوفية وما يحدث فيها من أفعال تخالف أحياناً تعاليم الشريعة الإسلامية، كالقيام بضرب السيوف والسكاكين وأكل المسامير والمشي على الشوك أو النار، وما شابه ذلك من أفعال يقصد بها خوارق العادات، كما أن بعض الإسلاميين المتشددين ينكرون على المتصوفة قيامهم بالذكر الجماعي، وحضورهم المجالس التي تقام بينهم عادة، والتي يطلق عليها الحضرة، وضرب الدفوف والمزمار، وتلاوة الأوراد والأحزاب عوضاً عن القرآن الكريم، بحجة أن تلك العادة تعتبر بدعة لم يرد بها شرع، كذلك ينكرون عليهم الاعتماد على الهبات والصدقات التي تقدم للزوايا مما يجعلهم تاركين للعمل والتكسب بطريق شرعي.

س (6) ـ (ب) هل تعاديها الدولة، أو تراقبها، أو أنها لا تبالي؟.

ما من شك أن كل دولة في الوقت الحاضر، تراقب كل ما يحدث داخل حدودها من أمور، وتقوم برصد الظواهر الاجتماعية والثقافية، إلا أنه فيما يتعلق بالخلاف الواقع بين المتصوفة والمثقفين الجدد، لم يكن في شكل صراع دموي يظهر خطراً على المجتمع، بل هو تباين فكري بين القديم والحديث، أو بين الأفكار الصوفية أو الأفكار الحديثة، ويعتبر ذلك مألوفاً في المجتمعات الإسلامية القديمة والمعاصرة، غير أن الدولة تتدخل حتماً عندما ينتقل الصراع من الآراء المعبر عنها بالكتابة، أو الخطابة، أو وسائل الإعلام الأخرى، إلى الإخلال بالأمن أو السلامة العامة.

س (7) ـ هل توجد أخبار، أو ملاحظات عن صوفيين كانت لهم معجزات، وأين ومن هم؟

لا تنسب المعجزات في التراث الإسلامي، إلا للأنبياء صلوات الله

عليهم، أما الأولياء فتنسب إليهم الكرامات فقط، وهي الإتيان بشيء خارق للعادة التي ألفها الناس، أو النواميس التي تسير عليها الحياة العادية، [وهذا الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد الولي تخليصاً له من مأزق، كإجابة الدعاء، أو الإخبار بأشياء قبل وقوعها][1] وهي ـ أي الكرامة ـ بين مصدق ومكذب، فأهل التصوف لا ينكرون وجود الكرامة للولي، لهم في ذلك أدلة يسوقونها من المصادر الشرعية، أما المنكرون لها، فهؤلاء لا يعتقدون أصلاً بالتصوف، أو بالطرق الصوفية، وبالتالي لا يؤمنون بالكرامات، ويصنفونها ضمن خانة الخرافات، والتاريخ الإسلامي حافل بالأولياء وكبار المتصوفة ممن نسبت لهم العديد من الكرامات على مختلف العصور.

س (8) ـ هل تتوفر معلومات مباشرة عن الذين مارسوا أو باشروا التصوف؟

توجد مؤلفات كثيرة خاصة بتراجم الصوفيين القدماء، وهي مليئة بالمعلومات الدقيقة عنهم، تشمل حياتهم، وسيرتهم وعلومهم، وكراماتهم وشيوخهم، وتلاميذهم، إلى غير ذلك مما يتعلق بهم، أما المتصوفة في الوقت الحاضر، فهم موجودون، وبالإمكان معرفتهم وجمع المعلومات عنهم، من خلال الطرق الصوفية التي ينتمون إليها.

س (9) ـ ما هي انتقادات المسلمين الملتزمين، هل هي مرفوضة كلياً لأنها لا تلبي متطلبات الحداثة، وأن الممارسة الصوفية ميالة إلى السحر؟

إن الإجابة عن السؤال السادس فيها الرد على هذا الاستفسار، ويمكن أن نضيف إليه أن بعضاً من طبقة الفقهاء، وهم علماء الشريعة، لا يرون في التصوف وسيلة إلى التقرب إلى الله تعالى، وإنما يكون ذلك بالعبادة المفروضة على جميع المسلمين، وهي الصلاة والصوم والزكاة والحج، وليس من وسيلة

(1) لمحات عن التصوف وتاريخه، د. السائح علي حسين، ص192، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1994.

للتقرب إلى الله سوى الإتيان بهذه الفروض والإكثار منها، وبالتالي فهم لا يقولون بما يراه الصوفية من زيادة الذكر والتسبيح، وخدمة الشيوخ والأولياء ليكونوا وسيلتهم إلى التقرب من الله، ومن خلال ذلك ينتقد الفقهاء المحدثون على المتصوفة، بأن طرقهم ما زالت قديمة، وتسير على وتيرة لا تلبي حاجات الإنسان المعاصر، علاوة على أن بعض المنتسبين إلى الطرق الصوفية يخالفون مبادئ التصوف، فيستخدمون عدة وسائل غير مشروعة لجمع المال، بحجة جلب البركة وشفاء المرضى واستعجال الحظ، باستعمال بعض الحيل والخزعبلات والسحر، ومن هنا يركز منتقدو التصوف على هذه الممارسات لمحاربة التصوف وطرقه.

س (10) هل يحارب الإسلام الصوفية؟

لا يتعارض التصوف السلفي السني مع الإسلام، والمقصود بالتصوف السلفي السني هو الذي يتمتع بالخصائص التالية: [أولاً: الإعلاء من شأن الزهد في الحياة، وهو الزهد المعقول الذي لا يبالغ في حرمان الجسد وإذلال النفس ثانياً: الاعتماد كلياً على نصوص الدين الواضحة في أصوله وقواعده، وآدابه ومراتبه، ومقاماته وأحواله، ثالثاً: تأكيد أهمية المعرفة الذوقية والإلهامية الكشفية، التي تأتي في القلب مباشرة، دون استخدام الحواس الخارجية، ولا إعمال للعقل، رابعاً: الاعتراف بكرامات الأولياء، وهي التي تقابل المعجزات بالنسبة للرسل، وتكون إمارة صدق على صحة السلوك، خامساً: قطع الطريق الموصل للتصوف بأن يتدرج السالك في رياضة روحية ونفسية نحو الصفاء الكامل في مقامات ومراتب وأحوال، سادساً: الإيمان بأن العلم إمام العمل، فهو سابق عليه في الوجود حكماً وحكمة، والإيمان بأن الفقه سابق على التصوف][1].

---

(1) دور التراث في تأكيد الأصالة، للأستاذ الدكتور عمر التومي الشيباني، ص129 ـ 134، نشر جمعية الدعوة الإسلامية، ـ طرابلس، 2000.

فالتصوف على هذا النحو لا يحاربه الإسلام، بل إن أغلب علماء الإسلام الكبار نجدهم يسيرون على هذا النهج، ومنهم من وضع المؤلفات الكبيرة في التصوف مما يدل على اعتناقهم له، ما التصوف الإشراقي الذي يقول بنظريات فلسفية كالحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، وما إليها، فهذا النوع من التفكير لقي معارضة شديدة من بعض العلماء قديماً، وصلت إلى درجة محاكمة القائلين به كالحلاج والسهروردي، واتهامهم بأن هذه الأفكار جاءت إليهم من الحضارات القديمة، كاليونانية والفارسية، وهناك من العلماء المحدثين من يرى أن هؤلاء المتصوفة الذين يقولون بهذه الأفكار الإشراقية، قد وصلوا بمواجيدهم إلى هذه الآراء من خلال المجاهدة والمكاشفة، والأحوال التي ترد عليهم وهي من الأمور التي لا يدركها إلا من جربها أو التبس بها، أو كابد هواها.

س.(11) ـ هل بقاء الصوفية يعزى إلى رغبة فيها (عامة) في حياة روحية خاصة بها، وصامتة؟ وأن هذا الطموح يتم إبداؤه أم يبقى غير معبر عنه، وإنما يمارس بصورة غير معلن عنها؟

يفهم من كلام ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع أن التصوف يقوم على مبادئ وجدت منذ ظهور الإسلام، وهي العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة، وكان ذلك عاماً في المسلمين الأوائل، فلما انتشر الإسلام، وتوسعت الفتوحات أقبل بعض الناس على الدنيا من خلال مظاهر الحضارة، التي كانت خلال القرن الثاني الهجري وما بعده، واختص بعضهم بالآخرة، بالانصراف، عن المظاهر الدنيوية، واتباع طريق السلف الصالح في الزهد والتقشف والخلوة وكثرة العبادات والطاعات[1].

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص439، طبعة دار الشعب، القاهرة، (د ـ ت).

يتضح من ذلك أن الانخراط في سلك التصوف، يكون لكل مسلم يرغب في أن يتقرب إلى الله تعالى، ويحيا حياة روحية، تبعده عن النواحي المادية التي سيطرت على الحياة المعاصرة، وغالباً ما يتم جذب هؤلاء المتصوفة عن طريق شيوخ التصوف الذين يضربون المثل لهم في السيرة الحسنة، والأخلاق الكريمة والعلم النافع، فهي التي ترغب المسلم في الانتساب إلى الطريقة الصوفية ويقوم الشيخ عادة بإعداد المريد وتكوينه وتهيئته للدخول في الطريقة، ويستخدم لذلك أساليب تربوية تؤدي في النهاية إلى اعتناق التصوف، وهذا الانتساب قد يتم تلقائياً دون ما حاجة إلى إعلان، أو ترغيب أو إغراء من شيخ الطريقة، أو المنتسبين لها، ولكن حاجة الإنسان إلى التقرب إلى الله تعالى، وشعوره بالحاجة للمزيد من الروحانيات في حياته، وإعجابه بأهل التصوف، وانجذابه إلى شيخ الطريقة، قد يكون سبباً في الدخول إليها.

س (12) ـ (أ) هل الصوفية قادرة على مواكبة عصرنا؟

إن الطرق الصوفية تتفاعل دوماً مع المجتمع الذي توجد فيه، وتكيف نفسها معه أوضاعه، ومن خلال تاريخها الطويل، كانت الزوايا الصوفية تقوم بعدة أدوار، منها التكافل الاجتماعي بين منتسبي الطريقة، والمشاركة في تعليم النشء بتحفيظ القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية، والمشاركة في الجهاد والمساعدة في توزيع الصدقات للفقراء والمساكين، إقراء الضيوف من منتسبي الطوائف الأخرى، ذلك ما كان سائداً في الماضي، أما في الوقت الحاضر فبإمكان الطرق الصوفية أن تتطور وتقوم بمهام أخرى توافق حاجة المجتمعات المعاصرة.

هناك تجربة فريدة قامت بها الزاوية العيساوية في مدينة درنة، وهذه الزاوية يلتف حولها مجموعة كبيرة من الزوايا الموزعة في جميع أنحاء ليبيا، وهي تقوم على اتباع طريقة صوفية قديمة، لها قواعدها وأورادها التي تلتزم بها، إلا أنها قامت بتطوير نفسها بحيث جعلت من المنتسبين إليها يواكبون العصر، بمتابعة

العلوم الحديثة، والتطورات التي يشهدها العالم، من ذلك مثلاً مشاركتهم في كل الفنون التي يستمتع بها الإنسان المتمدن، منها فن الرسم والتمثيل والموسيقى، وقرض الشعر، والتأليف والكتابة في كل العلوم، وليس في المجال الصوفي فقط، والمسابقات الرياضية والعلمية، وإقامة المسرحيات والكتابة الصحفية، إلى غير ذلك من الأنشطة المعاصرة، كل ذلك يتم مع الالتزام بتعاليم الدين، وما يفرضه من خلق كريم، الأمر الذي جعل الكثيرين من الأطباء والمهندسين، والطوائف العلمية الأخرى ينتسبون لهذه الطريقة ويشاركون في نشاطها الروحي والتربوي، والتعليمي الإرشادي، وهذا يعطي الدليل الأكيد على قدرة هذه الطرق الصوفية على مواكبة العصر، إذا وجدت القائد الروحي المتعلم الذي يفتح أمامها المجال، ويأخذ بيدها دون أن يحيد بها، عن مسلك الطريق الصوفي.

س (12)[*] ـ (ب) هل تعزى قوة الصوفية العادية إلى الروحانية التي تتحلى بها الأديان، ويعود أمر اعتناقها إلى حرية الأشخاص وصدقهم في عبادة الله؟

إن مجال التصوف مشبع بالروحانيات، ذلك أن العلاقة تكون بين الخالق والمخلوق وهي تشابه أو تماثل الأجواء الروحية في كل الأديان والعبادات بصرف النظر عن نوعها، إلا أن الملاحظ على المتصوفة هو ارتباطهم بالأجواء الروحية أكثر من غيرهم من المتدينين، ولكنها لا تصاحب هذه الروحانية المتدين في كل أوقاته وأحواله، على عكس المتصوف المتعمق في الطريقة، فهو يعيش في غالب أحواله في روحانية يرتبط فيها بعالم آخر، وهو ما يعرف بحالة الجذب، ومن هنا ظهرت الأفكار الإشراقية التي قال بها بعض المتصوفة كالفناء والحلول ووحدة الوجود، أو الحب الإلهي، وهذه الأحوال والمكاشفات، لا تتم إلا بالمجاهدة التي يكابدها الصوفي باختياره، أو تحت تأثير شيخ التصوف، وعليه أن يقطع الدرجات في السلوك والترقي حتى يصل إلى مرحلة أعلى من قبلها.

س (13) هل يمكن أن تكون الصوفية صعيداً للتلاقي والتحاور مع الأديان الأخرى؟

الصوفية ليست ديناً حتى يمكنها أن تتحاور مع الأديان الأخرى، وإنما يجوز لعلماء التصوف أن يشتركوا في أية محاورة من جانب الإسلام، لكونهم مسلمين وليسوا صوفيين فحسب، لأن التصوف طريق للتقرب إلى الله تعالى ضمن تعاليم الإسلام وأغراضه وفي نطاق شريعته، إلا أنه إذا وجد في الديانات أو الطوائف غير الإسلامية ما يماثل التصوف، فالاعتقاد أن ذلك لا يمنع من اللقاء والحوار.

س (14) هل هامشية التصوف بالنسبة للإسلام العادي أو السائد، تندرج في منطق المبادئ الإسلامية أو في الممارسة؟ أو في إرادة أولئك الذين يمارسون التصوف؟

سبق القول في الإجابة رقم (2) ـ (ج) أن التصوف يقوم على مبدأ الإحسان، وهو مبدأ مذكور في حديث رسول الله ﷺ [فالإيمان: أن تؤمن بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله جميعاً واليوم الآخر والقضاء والقدر والإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن تقوم بالصلاة والصيام، والزكاة والحج حسب الاستطاعة، أما الإحسان، فهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك] فالمقام الأخير هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك يكون المرء مسلماً إذا آمن بالله وأسلم على النحو المذكور، ويكون مسلماً متصوفاً، إذا آمن وأسلم ودخل في مقام الإحسان وهو التقرب إلى الله، ويتم ذلك بالانتساب إلى إحدى الطرق الصوفية الموصلة لهذا الهدف، وهو أمر اختياري لا إكراه فيه، وقد يصل إليه المسلم بنفسه والتزامه بالمبادئ التي تجعله قريباً من الله، وإن كان فقهاء التصوف لا يرون الهداية إلا عن طريق شيخ التصوف الذي يأخذ بيد الإنسان، بل يعتبرونه ضرورياً لسلوك الطريق.

س (15) هل للطرق الصوفية حضور في مؤتمرات وندوات وإصدارات وغيرها؟ وهل هي كافية ـ عرضية ـ جيدة؟

التجمعات العلنية هي التي تميز الطرق الصوفية عن غيرها، فسنة أهل التصوف اللقاء المستمر من خلال الزاوية، أو لقاء الطوائف والزوايا التي تنتسب إلى طريقة واحدة، كالزوايا العيساوية والقادرية مثلاً، أو لقاء زوايا مختلفة، ويكون لهم لقاءات موسمية تتم عادة عند مكان ضريح أحد الأولياء، أو الصالحين، مؤسس طريقتهم أو ممن انتسب إليها، وعادة ما يكون لبعض الأولياء موسم مقرر لزيارته يلتقي فيه من ينتسبون إليه، كذلك في الأعياد والمناسبات الدينية، ومع ذلك استحدثت الزاوية العيساوية في درنة ـ المنوه عنها سابقاً ـ طريقة متطورة في اللقاء السنوي، فلا يقتصر الأمر على لقاء عادي، يتناولون فيه الأكل وإقامة بعض المظاهر الاحتفالية القديمة وإنما تميز اللقاء بتطور تشهده الطرق الصوفية لأول مرة، وهو انعقاد الملتقى العام للزوايا الصوفية العيساوية، ويحضره بعض الزوايا الأخرى، ويشكل هذا اللقاء تظاهرة ثقافية تقوم في إحدى المدن الليبية كل عام، يشتمل على إلقاء محاضرات في مواضيع علمية وثقافية مختلفة، ومسابقات شعرية وفكرية ورياضية، ومعارض للكتب والرسوم، وتلاوة القصائد والأوراد، وعروض فنية مسرحية وموسيقية، يشترك في هذه الأنشطة الرجال والنساء، كل ذلك يتم في نطاق تعاليم الإسلام، ودون الخروج عن قواعد الأخلاق والشرف والاحترام.

أما الملتقيات العالمية، فقد انعقد في ليبيا ملتقى التصوف العالمي الذي عقد في الفترة ما بين 16 ـ 18 من شهر الفاتح (سبتمبر) 1995، وقد حضره عدد كبير جداً من الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، ألقيت فيه العديد من المحاضرات والبحوث، وتم نشر جميع أعماله سنة 1997 في سفر كبير يتكون من 631 صفحة تضمنت كلمات الوفود وبحوث المشاركين.

س (16) ما هو الفضاء الطبيعي والزمني الأدنى (ما هو ومتى) المسموح به لهم في المساجد؟

إن المكان الطبيعي للقاء الصوفية، ومحل اجتماعهم، هو الزاوية التي تؤسس لهذا الغرض، وتنسب منذ البداية إلى طريقة صوفية معروفة، وعادة ما تكون في كل تجمع سكاني يوجد به عدد من المنتسبين لهاته الطريقة، وليس من الضروري أن تكون هناك زاوية واحدة في كل مدينة، بل قد تجد العشرات من الزوايا لكل طريقة في المدينة الواحدة، والزوايا الأكثر انتشاراً في ليبيا هي الزاوايا العيساوية والزوايا العروسية، فهاتان الطريقتان هما الأكثر انتشاراً في عدد الزوايا، أما الطرق الصوفية الأخرى فهي الأقل عدداً.

وغالباً ما تتم ممارسة الأذكار والمدائح، أو الاحتفالات الدينية داخل الزوايا نفسها، إلا أن بعض المناسبات الدينية تتم أحياناً في المساجد كالاحتفال بالمولد النبوي، أو إلقاء بعض الدروس والمحاضرات في العلوم الدينية وغيرها، ويكون ذلك في غير أوقات الصلاة المكتوبة.

س (17) هل الحاجات الاقتصادية، والتنظيمية، تتم تغطيتها بالتمويل الذاتي أو بدعم من جهات خاصة؟.

إن إنشاء الزوايا الصوفية عادة ما يتم بالجهد الذاتي، وبتمويل من منتسبي الطريقة وما زال هذا الأمر قائماً حتى الآن، وقد ساهم الوقف الإسلامي في تأسيس الكثير من الزوايا ومحلات العبادة وتمويلها، فهناك بعض المنتسبين من قام بوقف عقار أو أكثر على الأضرحة والزوايا، فتبقى هذه الأملاك محبسه لا يتم فيها بيع ولا هبة ولا تصرف أو مقايضة أو ميراث، وتصرف غلتها إلى الزاوية أو الضريح، أو أتباع الطريقة الصوفية على حسب ما يذكره الواقف في حجة وقفه، بل هناك من يقوم بتأسيس زاوية على طريقة صوفية معينة، ويرصد لها الأموال اللازمة التي تساهم في تمويلها والصرف عليها لتستمر في أداء رسالتها مثال ذلك ما قام به الشيخ محمد بن حسن بن ظافر المدني، مؤسس الطريقة

الصوفية المدنية (1780 ـ 1846ف) الذي أنشأ الزاوية المدنية في مصراتة وأوقف عليها عليها كل أملاكه العقارية والمنقولة هناك[1].

س (18) كيف يكون نشاط المريدين إن وجد؟

إذا كان المقصود من السؤال، أنشطة المتصوفة خارج نطاق الطريقة الصوفية، أو الزاوية، فهم ناس يمارسون حياتهم العادية مثل غيرهم، فكل منهم يقوم بعمله أو وظيفته حسب تخصصه، ويقوم بأعباء حياته وحياة أسرة زوجته وأولاده، فلا يمنع التصوف من الزواج، بل يحث عليه لصيانة الدين والعرض والأخلاق، ولا يمنعه من ممارسة الحياة العادية، وما انتسابه للطريقة الصوفية إلا للتقرب إلى الله تعالى، ويكون ذلك بالتوبة والالتزام بمبادئ الإسلام، والأخلاق الفاضلة، وطاعة الشيخ، ومساندة الجماعة، وتلاوة الأوراد والوظائف الصوفية التي تعتمدها الطريقة، أما داخل الزاوية فلكل واحد منهم دور يقوم به، فهم متعاونون متكاتفون، يقومون جميعاً بخدمة بعضهم بعضاً مع احترام وتوقير وودّ، لا تجده خارج نطاق الزاوية، فالمتصوفة على درجة كبيرة من الأخلاق الحسنة، وشعارهم التواضع والاحترام للكبير والصغير على حد سواء، وأملهم ورغبتهم في ثواب الله تعالى.



(1) دراسة حجج الوقف، وثيقة وقف الزاوية المدنية في مصراتة، نموذجاً، د. جمعة محمود الزريقي، نشر في مجلة آفاق الثقافة والتراث، العدد 31، أكتوبر 2000، دبي، الإمارات العربية المتحدة.

المبحث الثاني عشر

أسئلة وأجوبة في التصوف

المجموعة الثانية

(المجموعة الأولى)

أسئلة عن التصوف مقدمة من الأستاذ الدكتور باراتوري ألبيرتو الأستاذ في جامعة تريفيزا ـ إيطاليا ـ إلى الأستاذ علي الصادق الحسنين، الباحث في العلوم الاجتماعية والتاريخية:

وبناء على طلبه أجاب عنها
الدكتور جمعة محمود الزريقي
باحث في الدراسات الإسلامية

(الحركة المرابطية في ليبيا)

س (1) هل تعتبر المرابطية اليوم حركة متميزة ومنتشرة في البلاد، كإسهام شعبي معاش؟

نعم تعتبر الحركة الصوفية في الوقت الحاضر، حركة متميزة ومنتشرة في البلاد من خلال زواياها الموجودة في كل مدن وقرى ليبيا، ولها مشاركة في الأعياد الدينية، والمناسبات الأسرية، بل والأعياد القومية للبلاد.

س (2) هل يمكن العثور بين «المرابطين» على أولياء حباهم الله، كما جاء في القرآن الكريم بالبركة؟

وفقاً لما جاء في كتاب الله الكريم، فإن كل مؤمن تقي يعتبر ولياً لله تعالى، وبالتالي فإن زمرة كثيرة جداً من المسلمين داخلة تحت هذا الوصف القرآني، أما إذا كان المقصود بالولاية المفهوم الصوفي، فلا يستبعد وجود من حباه الله بمزيد من الفضل، ومنحه الكرامات، وأعطاه البركة، إلا أن معرفة هؤلاء ـ كما هو معروف في علم التصوف ـ ليس بالأمر السهل.

س (3) ما هو مدى انتشار الطرق الصوفية وتجذرها في البلاد؟ في أي مناطق (حضرية أو ريفية) يبرز حضورها، وبين أي طبقات اجتماعية؟

إن الطرق الصوفية منتشرة في كافة المدن والقرى، وهي قائمة في كل أنحاء البلاد، داخل المناطق الحضرية والريفية على حدّ سواء، إلا أن حضورها يبرز بشكل متفاوت بين المدن والقرى، فالغالب تنشط الطرق داخل المدن في مناسبات معينة، كالأعياد والمواسم الدينية، ويكون نشاطها داخل الزوايا، ولا تخرج إلا في مناسبات خاصة، كالاحتفال بالمولد النبوي، أما في المناطق الريفية، فيكون لها نشاط مختلف، فإلى جانب المواسم الدينية، يكون لها حضور في المناسبات الخاصة بكل منطقة، كالاحتفال بموسم ولي من الأولياء أو اللقاء السنوي الذي يتم في الأضرحة.

س (4) هل في الطوائف فقط ينحصر الأشخاص «المتخصصون» في الاستجابة إلى دعاء الموالين؟ ما هو مدى قبول الناس (وعلى أي مستوى ثقافي) والدولة لهم؟

الانخراط في الطرق الصوفية ليس له شرط سوى الإسلام وصحة العقيدة وهي الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، وعدم التفريق بين الأنبياء، وعدم عبادة غير الله والإشراك به، وبالتالي يدخل في الطرق كل من

رغب فيها، سواء كان متعلماً أو أمياً، فقيراً أو غنياً، وهم متساوون داخل الطريقة، ولا يتميزون إلا بالعمل الصالح والخلق الرفيع.

وتجد الطرق الصوفية استجابة كبيرة من أصناف من المتعلمين، وأصحاب المناصب في الدولة الدخول إليها، ويزداد القبول إذا كان شيخ الزاوية أو شيخ الطريقة على درجة كبيرة من العلم والمعرفة، كثير التقرب إلى الله تعالى، أو ممن اتضحت بركتهم وظهرت كرامتهم بين الناس، فذلك مصدر جذب في الولوج للطرق الصوفية، وهذا أمر لا تدخل فيه الدولة ما دام النشاط لا يخالف القوانين المقررة.

س (5) هل ثمة ترويج تجاري لأشياء منشأها الزاوية أو المرابط؟

لا تعتمد الطرق الصوفية في الغالب على الأعمال التجارية، وليس هدفها الكسب المادي، وأغلب موارد الزاوية أو الطريقة من الأوقاف المرصودة لهذا الغرض، أو عن طريق التبرعات التي تقدم من المنتسبين للطريقة، أو من الأهالي، ومن الميسورين اهل الخير ويتم ذلك بسخاء وعن طيب خاطر دون إكراه أو خوف.

س (6) هل هناك اعتقاد في أماكن، كالمغارات أو الصخور، أو منابع الماء، تسكنها أرواح وأدت إلى إحداث اعتقاد شعبي، (من رواسبْ عبادة الأوثان والأرواح)؟

قديماً سادت بعض الاعتقادات لدى الناس عموماً وليس المتصوفة فقط كالاعتقاد عند خسوف القمر أنها سرقت من قبل ساحرة، لذلك يلجأ الناس إلى الآذان في المساجد، والدعاء عليها حتى تقوم بإعادة القمر في مكانه!؟، إلى جانب الاعتقاد في بعض الأماكن والجبال والأشجار، وغيرها من الجمادات وكل ذلك مخالف للدين الإسلامي، ونشأ عن حالة الجهل، إلا أن ذلك كان خلال النصف الأول من القرن الماضي، أما الآن فقد انتشر العلم، وزاد الوعي الديني فلم يبق لهذه الاعتقادات مكان، اللهم إلى القليل النادر، والذي بقي في اعتقاد الناس هي الأضرحة التي ما زال بعض الناس يزورونها لمعرفتهم بمن دفن فيها كونهم أولياء أو علماء، أو من أصحاب رسول الله ﷺ.

س (7) هل للمرأة دور في تاريخ الحركة المرابطية؟ وما هو؟ ما هي المعتقدات المتبقية من ذلك اليوم، (كنبية، أو عالمة، أو ساحرة، أو مواسية)؟

سبقت الإجابة على أغلب ما ورد في السؤال فيما سبق، إلا أنه لا يستبعد أن تظهر بين الحين والآخر بعض النساء ممن يقمن بالعزائم، أو تقديم النصائح الطبية، والتداوي بالأعشاب، ومنح بركتهم معها، ولا يتم ذلك إلا لمن ثبت أو صحت مداواتها، أو اشتهرت بذلك، فيقع الإقدام عليها من الناس، وهناك حالات لنساء ظهرت في المغرب وتونس وكذلك ليبيا.

س (8) هل ثمة مناطق أو بلدان حيث تتمتع العائلة المرابطية بوزن سياسي أو اجتماعي، كطبقة لها امتيازات؟

لا يخلو الأمر من وجود ذلك، فاشتهار المرابط أو الولي بالكرامات أو بالصلاح في منطقة معينة يخلق لأسرته نوعاً من السمعة الطيبة، فتكون محل احترام وتقدير من الآخرين، خاصة إذا كانوا ملتزمين بمبادئه وسيرته وصالحين في المجتمع، أما إذا كانوا عكس ذلك، فليس لديهم احترام، وقديماً كان لهؤلاء وزن سياسي أيضاً، خاصة في العهد العثماني، كأسرة سيدي الصيد دفين الهنشير، وكذلك خلال العهد الإيطالي حيث كان الاحترام للمرابطين، والعهد الملكي أيضاً فيما يتعلق بالسنوسيين والزوايا السنوسية، فهؤلاء كانوا يتمتعون بامتيازات، أما في الوقت الحاضر فقد ذابت هذه الفوارق فيما يتعلق بالامتيازات وتولى الوظائف أو الحصول على منافع مادية، إلا أن الاحترام ما زال قائماً لمن كان منهم صالحاً محترماً في سيرته وأخلاقه.

س (9) هل للمرابطين ـ في مجتمع الطوارق اليوم ـ دور مماثل لدورهم في الماضي، كقضاة أو ساسة، أو كموظفين إداريين، أو كحماة لمصالح مجتمعهم؟

لا إجابة، لعدم الخبرة بموضوع الطوارق.

س (10) أشكال الحركة المرابطية: الطرق الصوفية ـ (أ) ما هو مدى ومكان حضورها وكم هو عدد مريديها، وكيف يكون ظهور هؤلاء المريدين؟

للطرق الصوفية حضور قوي في المجتمع، وإن كان هذا الحضور يقتصر على المريدين والمحبين لهم، ولا يوجد حصر لعدد هؤلاء، ويتخذ الظهور أشكالاً متعددة، منها الاحتفالات التي تقام داخل الزوايا، وهذه تختلف باختلاف الطريقة الصوفية، فالطريقة التي تعتمد على الأذكار وتلاوة الأوراد فالغالب لا يحضرها الكثير من الناس، بل المريدون والمنتسبون للطريقة كالطريقة القادرية والخليلية، أما إذا كانت الطريقة تقوم إلى جانب الأذكار والأوراد بشيء من الفنون التي ينجذب إليها الجمهور، فهذه يكون حضورها قوياً، ويقع الإقبال على احتفالاتها، كالطريقة العيساوية مثلاً، وخاصة لدى احتفالاتها بالمولد النبوي.

(ب) المزارات: ما هو مدى قبول الناس لها؟ وهل تحظى برضى الدولة والشباب؟ وهل مسموح لها بالنموّ؟ وما هو النزوع القائم في الوقت الراهن؟

توجد في ليبيا العديد من المزارات، وهي في الغالب تكون في الأضرحة ويقبل الناس جميعاً على زيارتها، ويمكن تقسيم هؤلاء الزوار إلى ثلاث طوائف، أو أقسام على النحو التالي:

الأول: **يضم** جميع الناس الذين يزورون الأضرحة المشهورة لصحابة رسول الله ﷺ، وهي موجودة في غالب مناطق ليبيا، درنة، بنغازي، طرابلس مصراتة، الخ، وكذلك أضرحة كبار الأولياء والصالحين.

الثاني: **يضم** الطرق الصوفية والمنتسبين لها، وتكون زيارتهم للأضرحة في مناسبات عديدة، دينية وفصلية، اتخذتها الطريقة الصوفية موسماً للقاء منتسبيها ومريديها، وقد يصحبون فيها أسرهم، ومثال ذلك ما كانت تقوم بها الزاوية العيساوية بسيدي الشعاب من زيارة سنوية إلى ضريح سيدي الأندلسي بتاجوراء والإقامة بجواره مدة من الزمن خلال الصيف.

الثالث: **هناك** قبائل في الدواخل لها مزارات سنوية لأضرحة محددة غالباً ما تكون لجدودهم، جرت عادتهم القيام بها سنوياً، وتصاحبهم أسرهم بكاملها، وهي مواسم ترفيهية ولقاءات ودية أكثر منها مواسم دينية، وإن يصاحبها الاعتقاد في ذلك الولي وضرورة حضور الموسم وعدم التخلف عنه هذه اللقاءات هي لجمع الشمل، وتوثيق الروابط القبلية والاجتماعية، وقد يتم فيها بعض الأنشطة الرياضية والترفيهية.

وجميع هذه المزارات واللقاءات لا تتدخل فيها الدولة، ولكن ذلك يتم تحت نظرها كما تقوم الهيئات المحلية بتقديم يد العون والمساعدة على قيامها لما فيها من إرضاء لشعور الزائرين والترفيه عليهم، مع حفظ النظام العام والآداب العامة، وهذه المزارات ما زالت قائمة، ولا يوجد ما يمنع من وجود مزارات جديدة إذا جدت مستوجباتها وظروفها.

(ج) الطقوس: هل ثمة فصل بين المجال المخصص للرجال وبين المجال المخصص للنساء؟

ليس هناك طقوس خلال هذه المزارات يمكن إدراجها ضمن العبادات التوتمية القديمة، وإن كانت هناك مظاهر تصاحب هذه المزارات، منها حضور الزائر إلى الضريح والدعاء لصاحبه، والتوجه إلى الله بالدعاء لحاجته، أو أداء الصلاة في الضريح شكراً لله على حصول الزيارة.

(د) المحافل: هل هي تعبير صوفي (بالنسبة للرجال) أم هي أعمال ذات أغراض سحرية بالنسبة للنساء؟

إذا قصد بالمحافل في هذا الجزء من السؤال هذه الزيارات، فهي تتم على الأغراض المذكورة في الأنواع الثلاثة السابقة، منها قصد التبرك والتأسي والدعاء لصاحب الضريح، أو استجابة لشيخ الطريقة أو الزاوية، أو للقاء المتصوفة بعضهم ببعض، أو للترفيه من قبل الأسر والأطفال والشباب، وربما قام بعضهم بتقبيل القبر أو شرع في أخذ بعض ترابه للتبرك به، وأغلب من يقوم بذلك من

كان اعتقاده في تلك الأمور، أما عن اختلاط الرجال بالنساء، فهو محظور لأنه غير جائز شرعاً، وتتم الزيارة بشكل انفرادي للرجال والنساء.

س (11) عبادة الأسلاف:

(أ) هل ما انفكت تقام محافل في الأرياف حيث يرتكز تنظيمها على وشائج القربى؟

لا تقام هذه اللقاءات في المدن الكبيرة، لأن أغلب سكانها خليط ينحدر في أصوله إلى المدن الصغيرة والقرى في الدواخل، وغالباً ما يكون هؤلاء أشد ارتباطاً بقراهم ومدنهم الأصلية، مع أن إقامتهم وعملهم يكون في المدن الكبيرة، أما في الدواخل، القرى والأرياف والجبل، فغالباً تتم لقاءات كثيرة بين أفراد قبيلة واحدة، أو عدة قبائل يجمعهم أصل مشترك.

(ب) هل ما برحت لهذه المحافل وظيفة العمل على توثيق هوية المجموعة أو دعم روابطها على الصعيد الديني والثقافي والاقتصادي والاجتماعي؟

إن الغرض من هذه اللقاءات جمع الشمل، وتوثيق الروابط القبلية والاجتماعية، ومساعدة بعضهم البعض، أما في المجال الثقافي والديني، فلا تمايز لها عن بقية المحافل القبلية الأخرى، لتجانس المعتقدات الدينية والجوانب الثقافية بين جميع أفراد الشعب.

س (12) المرابطية العلاجية:

(أ) هل يقتصر على النسوة فقط الذهاب برفقة أبنائهن إلى المزارات لأجل العلاج؟

ذلك ما يتم في الحالات النادرة، وهي الحالات المرضية التي يئس الأطباء من علاجها، أو الأمراض النفسية التي تنفع فيها مثل هذه الزيارات المبنية على الاعتقاد في الولي أو صاحب الضريح، وليس شرطاً أن تكون من النساء وإن كن الأغلب في القيام بمثل هذه الزيارات لذلك تراهن بكثرة في الأضرحة برفقة أطفالهن المرضى.

(ب) هل الزوايا التي تضم ضريح ولي، ما انفكت قائمة؟ وكم عددها؟

ليس شرطاً أن تنشأ الزاوية الصوفية على ضريح ولي أو مرابط، ولكن بعض الزوايا القديمة تضم قبور بعض الشيوخ والصالحين، وقد تكون الزاوية بجانب الضريح، كما هو الحال في بعض الزوايا المقامة قرب الأضرحة التي بجانب سواحل البحر، وهذه الزوايا ما زالت قائمة إلا أنه لا يوجد حصر لها حتى الآن ـ حسب علمي.

س (13) الجذب أو الشطح المفضي إلى الهيام.

(أ) هل من معلومات عنها؟ وهل محافلها تلقائية أم لها قيادة؟ وفي هذه الحالة بمن هي منوطة؟

للجذب والشطح هي مصطلحات لها معان محددة في علم التصوف[1] لا أعتقد أن السائل يقصدها، وإنما المقصود ـ من وجهة نظري ـ هو ما يتم في الحضرة المعروفة لدينا في ليبيا، وهذه لا تتم بصورة تلقائية، وإنما تنشأ من اجتماع أهل طريقة معينة للقيام بالحضرة، بناء على دعوة من شيخ الزاوية وبحضوره، وعندما يبدؤون في الأذكار والمدائح، يقوم أحد الحاضرين وبطريقة تلقائية، بالوقوف والتمايل ذات اليمين وذات الشمال، بما يتفق مع دقات الدفوف، أو الأذكار، وهو ما يطلق عليه الجذب في اللهجة الدارجة، وهي حالة تعتري القائم بها نتيجة انفعاله بالأذكار أو بالألحان، فينسجم معها قولاً ولحناً وليس لشخص عادي أن يتصور كيف تبدأ ولا كيف تنتهي، إنما يقتصر دوره على وصف ما يشاهده، وتتم هذه بحضور شيخ الزاوية أو شيخ الطريقة وتحت

---

(1) يراجع على سبيل المثال: الرسالة القشيرية، تأليف الشيخ عبد الكريم القشيري، ص61، نشر دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، د.ت، وكتاب لمحات عن التصوف وتاريخه، للدكتور السائح حسين، ص258، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1994ف، وكتاب الحجة المؤتاة، للشيخ الأستاذ أحمد القطعاني، ص239، نشر مكتبة جمهورية مصر، القاهرة، الطبعة الثانية 1992ف.

إشرافه، لأنه يتولى بعد ذلك إفاقة المجذوب من الحالة التي كان عليها عقب الانتهاء من الحضرة.

(ب) هل تقام بداخل تجمعات الطرائق أي في محلات ضمن المزار؟ ما هي الطقوس المعتادة؟ هل الأمر محض حقّ صوفي أم هو جو مشوب بالنزوع إلى ممارسة السحر؟

تتم الحضرة في داخل الزاوية، أو أحد البيوت بناء على دعوة أصحابها أو في المزارات الموسمية، ولكل طائفة طريقة خاصة بالحضرة، إذ لكل منهم ترتيب معين يعرفه الأتباع، وهي ليست طقوساً دينية واجبة الاتباع، وإنما جرى بها العمل فقط، ولا توجد عقوبات على مخالفتها، ولكن ليس القصد منها النزوع للسحر، وإنما قد تكون بشأن الشكر لله على الشفاء من المرض، أو الرجوع سالماً من السفر، كالحج مثلاً، أو بشأن الدعاء إلى شفاء مريض، أو الحصول على مولود، وهكذا.

تلك هي الإجابات عن الأسئلة كما كتبتها في حينها إلى المستشرق الإيطالي المذكور وقد نقلت له الصورة كما هي عليه، أما فيما يتعلق بالإجابة عن السؤال الأخير، فقد كان القصد الإشارة إلى موطن الدعاء لا إلى الطلبْ من الولي أو صاحب الضريح أن يشفي المريض أو يعطي المولود، أو التوسل بالولي إلى الله تعالى، فالاعتقاد الصوفي أن للدعاء مواطن يستجاب فيها، من بينها ضريح الولي، وكذلك يجوز التوسل به إلى الله، وإلا فالحكم الشرعي معروف إذا كان الطلب موجهاً للولي نفسه، فهو حرام وشرك بالله، ويكفي في الرد على ذلك ـ كما قال مقيم الكتاب مشكوراً ـ قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 64].

والحمد لله ربّ العالمين.

انتهت الأسئلة

❊ ❊ ❊

الفهرس